تأليف
الدكتور عميراوي احميده

دراسات في تاريخ الجزائر الحديث

الطبعة الثانية

1425 / 2004



الأستاذ الدكتور

عميراوي احميده

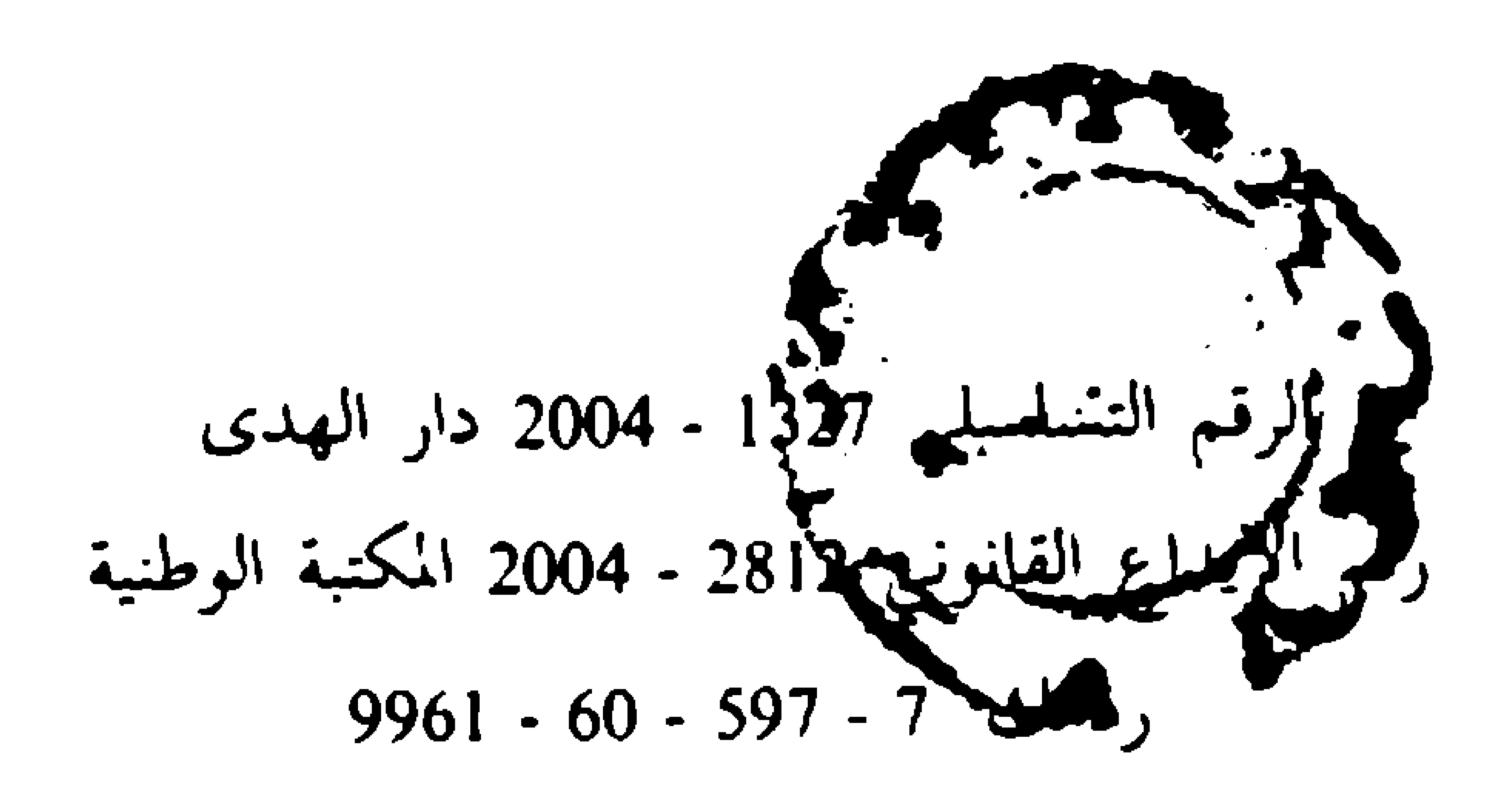


دراسات

في تاريخ الجزائر الحديث

الطبعة الثانية

2004/1425



الرقم التسلسلي 1327 - 2004 دار الهدى

رقم الإيداع القانوني 2812 - 2004 المكتبة الوطنية

ردمك 7 - 597 - 60 - 9961

شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع

المنطقة الصناعية ص ب 193 عين مليلة ه الجزائر

الهاتف 47 95 44 032/00 92 44 032 الفاكس 18 94 44 032

www.elhouda.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء الطبعة الأولى

إلى كلّ من ناضل ويناضل بصدق

من أجل أن تدوم الجزائر في عزّ..

إصدار وإهـــــداء الطبعة الثانية

قد أكون عبدا في ذاتي ولذاتي

قد أكون مُصادَرا في بلدي

لكنني حرٌّ في رحاب تاريخ وطني

فالتاريخ موطن الحرية لمن لا حرية له...

فإلى كل ملتزم للتاريخ أهدي له هذا العمل

الأستاذ الدكتور عميراوي احميده

قسنطينة في شهر رمضان 1425/أكتوبر 2004

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه سلسلة من المواضيع في تاريخ الجزائر الحديث سبق وأن ألقيت جزءا منها دروسا على الطلبة بمدرجات الجامعة. ونُشرت في مجلات علمية جمعتها وأعدت طبعها قصد وضعها في متناول الأغلبية من الطلبة وغير الطلبة. وهي تتناول فترة من تاريخ الجزائر الحديث الذي انكببت على البحث فيه منذ أكثر من ربع قرن. والفترة المعنية بالدراسة هي فترة الاحتلال الفرنسي؛ لهذا جاءت المواضيع وعددها تسعة على الشكل الآتي:

1- الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830

وهو الموضوع الذي كان ضمن محاور شهادة الماجستير والذي نهدف من تقديمه التعرف على ملابسات الحملة الفرنسية وردود الفعل المحلية؛ سواء الفرنسية التي كانت بين مؤيد ومعارض، أم الجزائرية التي تأرجحت بين القوة والضعف. وردود الفعل الدولية التي كانت بين مؤيد لأسباب مقنعة، مثل بلاطات أوروبا وبين معارض مثل بريطانيا والباب العالي. وكانت كل ردود الفعل هذه محكومة إلى مصلحة كلّ بلد.

2 - التواجد الفرنسي في بجاية

من خلال هذا الموضوع يمكن التعرف على ظروف احتلال هذه المدينة. وعن أهم العلاقات الأولى التي كانت بين السكان وسلطة الغزو الفرنسي. والهدف

الأكثر فائدة منه هو التعرف على وثيقة نادرة تضمنت تسع مواد هي المسماة بمعاهدة سعد وليدو رابح 1835.

3 – معاهدة الدوائر والزمالة عام 1835

من خلال هذا الموضوع يمكن التعرف على التوسع الفرنسي في الغرب الجزائري وعلى وضع الريف فيه وعلى موقف السكان من التوسع الفرنسي وبخاصة على العلاقات التي كانت من قبيلتي الدوائر والزمالة وسلطة الأمير عبد القادر والفرنسيين. وكل ذلك من خلال وثيقة هامة متعارف عليها في الأرشيف الفرنسي

4 – بمعاهدة الدوائر والزمالة

وهي تتأسس من اثنتي عشر مادة. وقعت بين طرفين جزائري وفرنسي عام 1835

5 – من خصوصيات الفكر في العالم العربي

يتميز هذا الموضوع بوجهة نظر خاصة حول مميزات الفكر العربي الإسلامي خلال الفترة التاريخية الحديثة، وتتمثل هذه الميزة في الفكر السلفي النصي والعقلي، والفكر الصوفي السكوني، والفكر الليبرالي المبهر.

6 – الجانب الفكري من "المقاومة" "الشعبية"
ضدّ التوسع الفرنسي في الجزائر

أبرزتُ من خلال هذا الموضوع البناء الاجتماعي الجزائري ومستوى الفكر فيه بدايةَ الاحتلال الفرنسي. مع التركيز على طبيعة الاستعمار الاستيطاني الذي جاء بمعطيات جديدة؛ وعلى الموقف الفكري الجزائري تجاهه.

7- إسماعيل "عربان" والسياسة الفرنسية في الجزائر

هذا الموضوع على غاية من الأهمية. فهو ليس ترجمة لحياة هذه الشخصية فقط؛ وإنما هو دراسة لتيار فكري هام هو تيار السان سيمونية التي لعبت دورا بارزا في توجيه السياسة الفرنسية في الجزائر.

8 - وثيقة نادرة عن المؤسسات الثقافية في مدينة قسنطينة

أهمية هذا الموضوع تبرز في المادة الخبرية التي تركها لنا ضباط الاحتلال الفرنسي؛ لاسيما وأنها تتعلق بالمؤسسات الثقافية العلمية من مساجد وزوايا وهي كثيرة حسب هذه الوثيقة، وتزداد الأهمية بعرض نص الوثيقة.

9 - الأمير عبد القادر رائد الحركة الوطنية وبطل «المقاومة» المسلحة

بينت في هذا الموضوع الدور الرائد للأمير في تصديه لقوات الاحتلال وحروبه المتعددة وعلاقاته الدبلوماسية.

وأني آمل أن تثرى هذه المواضيع، مثلما آمل أن تكون مبادرة يقتدي بها الزملاء الأساتذة لجمع مواضيعهم التي نشروها لتكون في مكتبة معهدنا في متناول الأغلبية من الدارسين.

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين

مثلما هو مذكور في مقدمة الطبعة الأولى يتضمن هذا الكتاب موضوعات في تاريخ الجزائر الحديث؛ فضلت أن أعيد طبعها بعد نفاذها. وقد أضفت معلومات استقيتها من أطروحتي. لهذا جاءت هذه الطبعة مزودة بوثائق خاصة في موضوع التواجد الفرنسي في بجاية وموضوع وثيقة نادرة عن المؤسسات الثقافية في مدينة قسنطينة.

ونرجو أن يحقق هذا الكتاب المطلوب ويفيد القراء وبخاصة الطلبة منهم.

الدكتور عميراوي احميده

قسنطينة في 2004/10/10

الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830
وردود الفعل حوله[1]

1 - نشر هذا المقال في مجلة سيرتا، يصدرها معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، العدد 3، ماي 1980 ص-ص.90-103

لم تكن فرنسا ولا الدول الأوروبية القوية تفكر بشكل عملـــي وســريع في القضاء على ما كان يسمى بالقرصنة في النيابات (الولايات) العثمانية بالمغرب العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى أن عقد مؤتمرٌ عـــام 1815 بفيّنا حيث اتفق فيه على جملة من الأمور ومنـــها القضــاء علـــى القرصـــنة الجزائرية1. وكلف اللورد اكسماوت (Lord Exmaouth) للقيام بحملة بحرية لضرب مدينة الجزائر[2] قصد إضعاف نشاط القرصنة وهو خلاف مـــا كانـــت تريده الحكومة الفرنسية. والظاهر أنها كانت تفضل استمرار القرصـــنة علـــى هيمنة بريطانيا في البحر المتوسط.

ولعل النية كانت من موقف فرنسا هذا هو التمهيدُ منها لغزو الجزائر، إذ تمّ لها ذلك بعد أن توفرت الأسباب وتعينت الأهداف، حيث اتخـــذت الحكومـــة الفرنسية من حادثة المروحة وقصف السفينة "لابروفنس" مبررا ظاهريا لقيامهـــا بتلك الحملة، بالإضافة إلى سبب عدائي قديم تمتد جذوره إلى عهد لويس الرابع

---

1 - يراجع: صلاح العقاد، المغرب العربي، ط.3، مكتبة الأنجلو- المصرية 1969، ص.79.

2 - كانت هذه الحملة مجهزة بـــ 33 سفينة. للمزيد ينظر: التميمي عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (1816-1871)، الدار التونسية للنشر، تونس 1972، ص.238.

عشر[1]. وكان لتلك الحملة ردود فعل مختلفة سنحاول دراستها من خلال النقط الآتية:

1- ردود الفعل داخل فرنسا

2 - موقف الباب العالي من الاحتلال

3 - ردود الفعل الدولية

4 - "المقاومة" في الجزائر وانعكاساتها على الرأي العام الفرنسي

1 - ردود الفعل داخل فرنسا

تولدت ردود فعل مختلفة عن الغزو الفرنسي للجزائر داخل فرنسا نفسها وذلك نتيجة للأوضاع السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة يومئذ، فقد كانت فرنسا تعيش صراعات سياسية وتناقضات اجتماعية مردها الفروق الطبقية وما كانت تحظى به بعض الطبقات من امتياز. وقد تتالت الأحداث منذ أن تولى شارل العاشر الحكم مما زاد في حدة الخلاف بين أعضاء الحكومة

---

1 -أرجمنت كوران، السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، تعريب التميمي عبد الجليل، ط.2، تونس 1974، ص-ص.18-19. كان أسطول الحملة الفرنسية مكونا من 675 سفينة تجارية وحربية، منها 7 بواخر. يراجع:

Nettement (A), Histoire de la conquête d'Alger, Jaque le Coffre et Cie, Paris 1856, P-P.238-241

وفئات المعارضة، وخاصة لما أصدر الملك قرارات[1] كانت محل نقد وسخط من أغلب أوساط الشعب الفرنسي، لأن الأحرار في فرنسا فهموا أن الملك يريد بقراراته هذه الانتقام من الدستوريين لاسيما وأنه عين دي بورمون قائدا عاما للحملة في الوقت الذي كانت فيه نظرتهم إليه على أنه رجعي لأنه خان نابليون في معركة واترلو 1815. وأنه تعاون مع أسرة البوربون في قمع الحركات التحررية وقاد الحملة ضد أحرار أسبانيا عام 1823.

ولما تمّ الإعلان الرسمي عن إرسال الحملة الفرنسية ظهرت ردود فعل يمكن حصرها في أوساط:

1. الملكيين.
2. الماليين.
3. اللبراليين.
4. الاقتصاديين.

فالملكيون كانوا يؤيدون الحملة بهدف دعم شعبية الملك الذي لم يكن محبوبا من الشعب، وكذلك إلى التخلص من دفع ديون الحبوب التي كانت "للجزائر" ولرعاياها على فرنسا، وبهدف مزاحمة بريطانيا في مجالات استراتيجية. وناصر

1- من هذه القرارات مسح مليار من الفرنكات إلى المهاجرين الفرنسيين النبلاء. يرجع: هـ.أ. فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، تعريب: أحمد نجيب هاشم، ووديع الضبع، ط.5، دار المعارف بمصر ص.139.

الحملة كل من كانت مصالحه مرتبطة بتحقيق هذه الأهداف؛ خاصة الغرفة التجارية بمرسيليا التي كانت تتزعم الطبقة البرجوازية الفرنسية. إذ هي التي شجعت فكرة فرض الحصار البحري على الجزائر لتتوسع اقتصاديا. وكان على رأس هؤلاء الملكيين الأمير دي بولينياك(De Polignac) رئيس الحكومة الذي رأى في الحملة وسيلة لتحقيق مكاسب كثيرة وهامة لفرنسا؛ منها حسب رأيه:

1. تحقيق مكسب أدبي يتمثل في حماية المسيحيين الذين يعاملون في الجزائر كعبيد وهذا لا يشرف فرنسا. وآخر سياسي وهو وضع حد لنشاط القرصنة وحماية التجارة الأوروبية بعامة. والفرنسية بوجه خاص.
2. الحصول على مصادر تجارية واسعة بضمان طريق المواصلات إلى مصر، وهذه النقطة كانت موضع اهتمام خاص فهي كانت أكثر من عامل لنشاط المؤسسات الفرنسية في إفريقيا[1]. كل هذا كان لا يتم في رأي دي بولينياك إلاّ في الاحتفاظ بالجزائر العاصمة وبأغلب المدن الساحلية، لاسيما مدينة عنابة التي كانت تعتبر مصدرا هاما لتجارة حوض البحر المتوسط، بينما كان الاعتبار في نظر الساسة الفرنسيين أن تبقى بقية الأراضي للباب العالي. إلا أن وزير البحرية الجنرال دوسي (D'Hausser) أمر باحتلال جميع الموانئ. وقد أيده المارشال دو بورمون الذي أكد للغرفة التجارية بمرسيليا قبل انطلاق الحملة بقوله بما معناه أن فرنسا ذاهبة لأخذ الجزائر ولإنشاء

1- Roux (Ch), <u>France et Afrique du Nord avant 1830,</u> Félix Alcan, Paris 1932. P-P. 502-503

مستعمرة فيها، ولتأسيس حكومة بها يرأسها أمير فرنسي[1]. ووجدت هذه الآراء الصدى الواسع في أغلب أوساط المجتمع الأوروبي، فمنهم من أيد ومنهم من عارض.

أما المثاليون وبخاصة الدينيون منهم الذين لم يروا في الاحتلال تحقيقا للمكاسب المذكورة فحسب بل نشرا للحضارة المسيحية أيضا في مجتمع بدائي لا يعيش -حسب رأيهم- إلا على الحرب والنهب[2]. ونذكر من المؤيدين من المثاليين -على سبيل المثال لا الحصر- أليكس كولومبيل(Alex Colombel) الذي نشر مقالا في فيفري 1830 مفاده أن احتلال الجزائر عامل مكمل لحضارة فرنسا، وعامل موازاة مع بحر المانش ودعم هام لحرب قد تكون ضد إنجلترا لضرب تجارتها الذي هو بمثابة الضرب في قلبها[3]. وقد يكون من الأسباب التي ساعدت على أن يكون الموقف مشحونا بعداوة من أغلب الدول الأوروبية حيال الجزائر لأن هذه الأخيرة كانت تمثل القوة الإسلامية في بلاد المغرب العربي بينما كانت فرنسا تمثل القوة المسيحية في البلاد الأوروبية.

أما الليبراليون فقد انقسموا إلى مؤيد ومعارض وكان المعارضون وقفوا ضد مشروع الحملة بشدة. وكان لموقفهم أثر عميق على السياسة الفرنسية الداخلية

---

1. Valet René, L'Afrique du Nord devant le parlement au XIXe siècle, H. Champion, Paris 1924, P.43.

2 -المصدر نفسه، ص.18.

3. Du parti qu'on pourrait tirer d'une expédition d'Alger, Evert, Paris Février 1830.

منها والخارجية، الأمر الذي أدى إلى أن يتعاقب ثلاثة وزراء علـــى الحكـــم في عهد شارل العاشر الذي أطيح بعرشـــه هـــو الآخـــر إثـــر ثـــورة جويليـــة 1246هـ/1830م[1].

ففي دورة البرلمان سنة 1829 قدمت إحصاءات عن خسائر الحصار البحري التي بلغت خلال سنتين 14 مليون فرنك، ثم طُلب من الحكومة الفرنسية سبعة ملايين أخرى إضافية؛ فوجهت المعارضة انتقادات شديدة ضد هـــذا المطلـــب وضدّ ذلك الحصار السلبي الذي لم يمنع ما كان يسمونه بالقرصنة من ممارســـة نشاطهم.

وكان من أشد المعارضين للحملة مـــن اللـــبراليين المـــار ســـيلي تومـــاس (Thomas) الذي قال في جلسة البرلمان يوم 10 جويلية 1829 إن الحرب ضد الجزائر شديدة جدا فمنذ سنتين وأسبابها الأولى غير معروفة. فقط قال الـــوزراء إن الداي أهان القنصل، ولكنهم لم يوضحوا أسباب هذه الإهانة ومـــا هـــي أبعادها وظروفها؟ ثم أضاف قائلا: أن 14 مليون فرنك قد ضـــاعت خـــلال العامين السابقين والآن يطلب اعتماد 7 ملايين أخرى وهذا للحصـــار فقـــط. لماذا هذا؟[2].

ومن أبرز المعارضين كذلك الجنرال فوي (Général Foy) والنائب الكونت الكسندر دي لابـــورد (Alexandre de Laborde) وآلار (M. Allar) ودي

---

1 - والوزراء هم: فيلال ثم دي مارتينياك وأخيرا دي بولمينياك.

2- Nettement (A), op.cit. P-P.188-189

صاد (De Sade). إذ أنه في الوقت الذي أوشك تحضير الحملة على نهايتها نشر دي لابورد مقالا في منتصف أبريل 1830 تحت عنوان: "إلى الملك وإلى الغرف حول الأسباب الحقيقية للمقاطعة مع الداي" هاجم فيه مشروع الحملة ودعا جميع الأطراف بغض النظر عن اختلافاتها إلى التعقل والوقوف ضد الحملة التي اعتبرها جريمة ترتكب ضد الجزائر. ثم ألح على ضرورة إيجاد وسائل أخرى غير والوسيلة العسكرية لحل النزاع القائم بين الجزائر وفرنسا. وأنه من الأفضل – حسب رأيه- أن تستغل أموال فرنسا وتراق دماء أبنائها من أجل سبب آخر غير هذا[1] خاصة وأن فرنسا أنفقت سنويا آنذاك حوالي 400 مليون في أسبانيا ومن دون مقابل ملموس يعود على فرنسا بالفائدة، علاوة على أن خسائر الحصار على الجزائر المالية والبشرية كبيرة جدا. وحاول في نفس الوقت إقناع الرأي العام الفرنسي أن فرنسا تحتاج إلى منشآت داخلية لا إلى مستعمرات. وبالرغم من أن مقاله جاء متأخرا لأن الحملة كانت تهيأت للانطلاق والبرلمان قد أغلق أبوابه فإن مقاله أحدث صدى عميقا في أوساط الشعب، مما أثر على المناقشات التي جرت فيما بعد حول فكرة الجلاء التخلي عن الجزائر أو الاحتفاظ بها.

ومن الذين كان لهم تأثير قوي على مجرى السياسة الفرنسية حيال القضية الجزائرية المفكرون الاقتصاديون الذين عارض أغلبهم مشروع الحملة، وتأسيس

1- De Laborde (A), Au Roi et aux Chambres sur les véritables causes de la rupture avec Alger et sur l'expédition qui se prépare, Truchy, Paris 1830, P.82.

مستعمرات فرنسية لأن ذلك حسب رأيهم- لا يكون إلا على حساب الشعب الفرنسي وعلى حساب فلاحته، وصناعته، وخزينته وقد أحرجت هــذه الآراء المعارضة الحكومة الفرنسية وأثرت على معنويات الشعب غير المتحمس لمشروع الخطة. إلا أن تلك الانتقادات لم تتعد مستوى الكلمة المسموعة أو المكتوبة إلى العمل الفعلي.

وفي الوقت الذي كان فيه الرأي العام الفرنسي ينتظر باشتياق تحرير بعــض البلدان كاليونان ويتتبع باهتمام تهديدات الروس ضد الدولة العثمانية ويدعو إلى تدعيم حرية الشعوب، في هذا الوقت فوجئ بإعلان التعبئة العامة للقيام بحملــة ضد ولاية الجزائر، بعد أن اختمرت أسبابها وتعين هدفها، وتوفرت وســيلتها، وإن كان ينقصها شيء حدده دو لابورد في تأييــد الشــعب؛ لهــذا كثــرت التأويلات حول مغزى هذه الحملة إلى أن اعتقد الرأي العــام في أن الهــدف الحقيقي من الحرب ضد ولاية الجزائر ما هو إلا إعداد الجيش الفرنسي لحــرب ضد الباريسيين[1].

ومهما يكن فقد نجحت الحكومة الفرنسية في خطتــها واحتلــت الجزائــر العاصمة في عهد أضعف وزارة فرنسية وأضعف منكية. إلا أنها فوجئت بمقاومة وطنية عنيفة زادت في ردود الفعل وشجعت المعارضين الذين استغلوا مواقــف بعض الجزائريين أمثال حمدان خوجة للضغط على الحكومة الفرنسية.

1- Valet. P. 50.

هذا في الوقت الذي راح فيه فريق آخر يؤيد الحملة ويـــدعو إلى اســـتعمار الجزائر، إذ في 12 جويلية 1830 نشر الضابط المتقاعـــد بـــابرون (Babron) مقالا مضمونه: أن شرف فرنسا لن يكون ولن يحفظ إلا في الاحتفاظ بالجزائر كموقع إستراتيجي حربي لحماية التجارة الفرنسية ولمنافسة بريطانيا[1]. وعملت الحكومة الفرنسية بهذه الآراء فاحتفظت في الجزائر التي صارت دعامة لوضعها الاقتصادي والعسكري. بجانب مواقف بعض التيارات الفكرية التي شـــجعت عملية الاستيطان في الجزائر. سيكون الحديث عنهم في حينه

2- موقف الباب العالي من الاحتلال:

في نهاية القرن الثامن عشر توثقت الروابط بين ولاية الجزائر والباب العـــالي أكثر مما كانت عليه؛ على عكس ما ذهب إليه معظم المؤرخين أمثال أرجمنـــت كوران الذي قال: "أن الروابط بين وجاق الجزائر والباب العالي قـــد ضـــعفت وصارت التبعية عبارة عن تصديق السلطان على توليه الداي فقـــط"[2]. إذ لمـــا احتل الجنرال بونابرت مصر سنة 1798 ضغط السلطان بإنذار شديد اللهجـــة على وجاق الجزائر ليقاطع فرنسا، ونفذ الداي ذلك بالرغم مـــن أن علاقـــات ودية كانت تربطه بفرنسا.

---

1 -هذا المقال نشر بعنوان:

Il faut garder Alger L'honneur français l'ordonne. Setier, Paris 12-7-1830.

2 -ينظر: أرجمنت كوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التميمي، الدار التونسية للنشر، ط2، تونس 1972، ص.15-16.

وبعد أن تصالحت الحكومة الفرنسية مع الباب العالي عادت العلاقات من جديد إثر التوقيع على معاهدة الصلح بين وجاق الجزائر والحكومة الفرنسية (سنة 1801). هذا من جهة. ومن جهة أخرى فعلى الرغم من وجود قانون يمنع التجنيد من تركيا نتيجة لإلغاء نظام الانكشارية في عهد السلطان محمود فقد سمح السلطان العثماني بتجنيد عساكر من أزمير للالتحاق بالجزائر بناء على طلب الداي حسين بقناعة أن الجزائر كانت تعيش ظروف حصار، ومن جهة ثالثة أرسل الداي سفنا جزائرية لتحارب بجانب الأسطول العثماني. كل هذا وغيره يدل على متانة الصلة، التي كانت تربط الوجاق بالباب العالي، لهذا لما غزت فرنسا الجزائر كان للدولة العثمانية ردود فعل مختلفة تمثلت في:

1 – المجال الدبلوماسي

2 – العمل السياسي

3 – الميدان العسكري

1– المجال الدبلوماسي:

قامت الحكومة العثمانية بالاحتجاج بواسطة -رئيس الكتاب- على تهديد فرنسا بإعلان الحرب ضد الجزائر فيما لو لم يتدخل الباب العالي لتأديب الداي. لأن السفير الفرنسي دي قيمينو(De Guilleminot) باسطامبول قدم مذكرة في 2 أوت 1827 إلى رئيس الكتاب جاء فيها: "وحيث أن الداي قد زاد من تعدياته السابقة بتحقيره قنصل فرنسا في الجزائر فإن جناب ملك فرنسا اضطر لطلب ترضية علنية مهددا بالحرب في حالة رفض طلبه، وحيث أن طلبه قد

رفض وعليه فالحرب محققة"1. فاحتج رئيس الكتاب على هذه المذكرة قـائلا ليس لفرنسا الحق في أن تعلن الحصار أو الحرب دون إعلام الباب العالي مسبقا، إلا أن الحكومة الفرنسية لم تبال بهذا الاحتجاج لأنها كانت تدرك أن الدولـة العثمانية لا تستطيع أن تفعل شيئا لانشغالها بالثورات الانفصالية خاصة الثـورة التي قامت في جزيرة مورا. زيادة على ما لحقها من ضعف إثـر انهزامهـا في معركة نافرين (1827).

وبعد أن وقعت السلطنة العثمانية معاهدة أدرنة مـع روسـيا في سـبتمبر 1829 زادت من اهتمامها بقضية الجزائر فأوفدت خليل أفندي إلى الجزائر في أوائل نوفمبر من نفس السنة أملا في أن يعقد صلحا بين الطرفين المتنازعين، إلا أن السفير الفرنسي طالب الباب العالي مرة أخرى بضرورة تأديب والي الجزائر مقترحا حملة قوامها عدة آلاف يسمح بها حضرة السلطان بفرمان (بيان) يحمـل خط يده الشريفة لـتأديب الداي[2] لكن الباب العالي رفض بكل شدة وأسرع في إرسال طاهر باشا إلى الجزائر مارا بمصر، لكن قائد الحصـار الفرنسـي لم يسمح له بالمرور، إلى أن علم الباب العالي بسقوط الجزائر من خلال مـذكرة قدمها له السفير الفرنسي في أوائل أوت 1830، حيث طلب فيهـا شـروطا قاسية مقابل ترك ولاية الجزائر للباب العالي لكنّ السلطان رفض هذه الشروط.

---

1 - أرجند كوران، ص.23.

2- Douin (G), Mohamed Aly et l'expédition d'Alger (1829-1830), Le Caire 1930, P.52.

ثم انشغل بهجوم والي مصر على سوريا في أوائل نوفمبر سنة1831. ولما تصالح مع كل من والي مصر وباقي الدول المجاورة في منتصف سنة 1833 جدد اهتمامه بقضية الجزائر. وصادف أن وردت في هذه الفترة عريضة من حمدان خوجة باسم إبراهيم بن مصطفى باشا إلى وزير البحرية التركي تقرر على إثرها إرسال مصطفى رشيد باشا في سبتمبر 1834 سفيرا إلى باريس لغرض تذكير الحكومة الفرنسية والاتصال بمن يهمهم الأمر أمثال حمدان خوجة، إلاّ أن مساعيه باءت بالفشل. ونفس المصير لقيته محادثات نامق باشا في لندن.

والملاحظ عن الباب العالي أنه كان في هذه الفترة كثير التشاور مع الدول الكبرى، وكان يأمل في الحصول على مساعدتها بالرغم من تماطلها وتظاهرها في أنها ستتحكم في الموقف بحزم، وعندما تيقن من أنه لا يمكن استرجاع الجزائر بالطريقة الدبلوماسية حاول تطبيق طريقة أخرى تمثلت في:

2 - العمل السياسي:

بعد أن فشلت المحادثات في باريس ولندن قرر الباب العالي القيام بمحاولة لاسترداد الجزائر أو على الأقل لمنع فرنسا من أن تتوسع في بلاد المغرب العربي، فأرسل حملة عسكرية إلى طرابلس الغرب وصلت يوم 26 ماي 1835 وتمكنت من القضاء على الخلاف القائم هناك بإلحاق حكم الولاية بالباب العالي مباشرة. بالإضافة إلى أنها كانت محاولة هامة لحماية تونس من الاحتلال الفرنسي أملا في أن تقدم مساعدات لأحمد باي بقسنطينة. وتخوفت فرنسا من تلك المحاولة فأرسلت سفنها لتتبع الأسطول العثماني الذي لوّح برغبة الباب

العالي لضم تونس[1]. وكان من السهل لفرنسا أن تعمل على ضمّ تونس إلى مجال نفوذها نظرا لضعف الحكم في تونس من الناحية العسكرية وللعلاقات السياسية والاقتصادية التي كانت تربط تونس بفرنسا، ولخوف باي تونس من سقوط الأسرة الحسينية كما وقع في ليبيا، تحسبا لهذا كان الباي التونسي كثير الميل إلى فرنسا.

3 – الميدان العسكري:

لما نجح السلطان في فرض سياسة الأمر الواقع على طرابلس اقترب من الأحداث الجارية في الشرق الجزائري. وصار بإمكانه التدخل؛ إلا أن ذلك لم يكن ليتم إلا عن طريق البحر لاسيما وأن طلب النجدة من أهالي قسنطينة وعلى رأسهم الحاج أحمد باي كان يتزايد من يوم لآخر، في الوقت الذي استطاع فيه الحاج أحمد باي أن يوسس نظاما جزائريا يتماشى وقدرته إذ جزأر المناصب وعبأ الشعب للمقاومة، فالتف الأهالي حوله مما ساعدهم على أن يقاوموا عدوا يفوقهم عدة وعددا مدة طويلة، وبفضل هذا الالتفاف صمد أحمد باي و لم يستسلم بعد سقوط عاصمته إذ أنه ترأس «المقاومة» واستمر على اتصال بالسلطان العثماني الذي كان ينصحه بالتزام الطاعة والصمود وعدم التفاوض مع العدو2. والظاهر أن السلطان تزعزعت ثقته في الحاج أحمد

---

1 -أرجمنت كوران، ص.59،61،62.

2 -مذكرات أحمد باي، تعريب العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1973، ص.30-31

باي نتيجة أقوال أشاعها باي تونس وصفه من خلالها بالداعي للنزعة الانفصالية عن الدولة العثمانية فأرسل السلطان كامل باي ليتأكد من صحة ذلك وليحث الأهالي على التزام الطاعة للسلطان، وبعد الهجوم الفرنسي الأول على مدينة قسنطينة عام 1836 طلب أحمد باي مساعدات عسكرية فلبى السلطان قائلا: "ونخبركم بأننا لن نبخل عليكم بمعونتنا وسنرسل إليكم عددا كافيا من الجنود والمدافع". وصلت تلك النجدة إلى تونس وعددها أربع سفن مشحونة بالجنود الأتراك على متونها 12 مدفعا و150 من رماة المدافع1. إلا أن باي تونس لم يسمح لتلك النجدة أن تمر معتذرا بأنه يخشى تدخل الأسطول الفرنسي ومهاجمته للمدينة، وحتى لا تسوء علاقته الطيبة مع الحكومة الفرنسية. إلا أن الهدف الحقيقي هو محاولة لإضعاف قوة أحمد باي التي كانت تقلق الحكم القائم في تونس.

وكان رد الحكومة الفرنسية على هذا التدخل التركي لمساعدة أحمد باي بقوة إذ أنه في الوقت الذي كان فيه أعضاء الباب العالي يتشاورون في مسألة هي هل يمنح لقب الباشا إلى أحمد باي أم لا؟ حذر السفير الفرنسي الموجود باسطامبول وزير الخارجية خلوصي باشا قائلا: في حالة ما إذا وافقت الحكومة التركية على ذلك سوف تنتج عنه عواقب سيئة بين الحكومة الفرنسية والعثمانية. وفي مقام آخر حذرت الحكومة الفرنسية بأنه في حالة تحقيق

---

1 - أرجمند كوران. ص. 21

السلطان لمطلب قسنطينة فإن فرنسا ستعتبر نفسها في حالة حرب مع الدولة العثمانية[1].

ولما أقلع الأسطول العثماني متجها نحو المياه الإقليمية التونسية أملا في ضمها إلى حظيرة الباب العالي على غرار طرابلس بادرت الحكومة الفرنسية بإرسال أسطولها للحيلولة دون وصول الأسطول العثماني إلى المياه التونسية بحجة حماية المصالح التجارية والسياسية في حوض البحر المتوسط. و لم يجد الأسطول العثماني بدا من العودة إلى اسطامبول في أواسط سبتمبر 1837 دون أن يحقق هدفه، وتعتبر هذه العملية آخر محاولة عسكرية للباب العالي رغم سقوط مدينة قسنطينة وتزايد طلبات النجدة من الحاج أحمد باي إذ التزمت السلطة العثمانية الصمت مما يدفع الباحث على القول إن الباب العالي لم يكن قادرا على استرجاع الجزائر. ويتأكد هذا في أول حولية نشرتها الدولة العثمانية سنة 1847 حيث لم تكتب ولاية الجزائر في جدول الولايات العثمانية كما كان يحدث سابقا.

3 – ردود الفعل الدولية:

لم تؤيد أغلب الدول الأوروبية الحملة الفرنسية فحسب بل دعمتها بطريقة مباشرة وغير مباشرة، ونذكر من بينها النمسا وروسيا وبروسيا، باستثناء بريطانيا التي كانت في عداء تقليدي ضدّ فرنسا منذ الفترة التي ورثت فيها بريطانيا معظم التوسعات التي اقترنت بالكشوف الجغرافية. حيث كانت ضد

---

1 -أرجند كوران. ص. 76

مشروع الحملة بوجه خاص، والسر في ذلك حتى لا تتمكن فرنسا من تكوين إمبراطورية تنافسها. ولعل هذا ما يفسر موقف بريطانيا من عدم قضائها علـى القرصنة المغربية لاسيما وأنها كانت قوية في البحر المتوسـط إبـان حـروب نابليون، واكتفت بالحملات التأديبية ضد داي الجزائر دون القضاء النهائي على القوة البحرية. وكانت تراقب نشاط فرنسا إذ هـي الـتي جهـرت بسـرية المفاوضات التي كانت بين دروفتي الفرنسي وإبـراهيم باشـا، وسـاهمت في إجهاض حملة محمد علي[1]، وضغطت من جهة أخرى على الباب العالي كـي يسرع في إرسال طاهر باشـا شـرط أن يمر بالإسـكندرية. إلا أن فرنسـا استطاعت أن تسلك طرقا أكثر التواء فتخلصت من المضايقات البريطانية بـأن قامت هي نفسها بالحملة وأعطتها صبغة مسيحية بعد ووظفت وسائل دعائيـة كبيرة بأن وزعت نشرات على أغلب الدول الأوروبية أشعرتها فيها بضـرورة المساعدة لنجاح الحملة التي قالت عنها إنها ستخدم مصالح أوروبا كلـها. ولم تجد بريطانيا حجة تدعم بها اعتراضها سوى أن طلبت من الحكومة الفرنسـية بيانا رسميا عن الهدف الحقيقي من الحملة خوفا من أن تتوسع فرنسا في بلـدان أخرى كسردينيا[2]. ثم مارست بعض الضغوط على فرنسا بأن وقفت بجانـب الباب العالي تناصره دبلوماسيا، وكان موقفها ضعيفا حيال القضية الجزائريـة

---

1 - أرجمند كوران. ص. 31. وكذلك .Nettement p. 263

2 - - ينظر:

Esquer (G), Les commencements d'un Empire. La prise d'Alger, 1830. Larose, Paris 1929, P-P. 151-152.

لاستردادها، والظاهر أنها كانت تهدف من وراء تحركها السياسي إلى الحد من التوسع الفرنسي فقط وكسب مشاعر الباب العالي. ومن الطبيعي أن يكون موقف بريطانيا كذلك لأن المعارضة البريطانية لم تكن إلا من طرف الحكومة والهيئة العسكرية على وجه الخصوص. ولم تكن من طرف البرلمان ولا من طرف الشعب إذ لم يكن الرأي العام يفكر في حرب ضد فرنسا من أجل الجزائر، علاوة على أن اهتمام العامة كان مركزا حول الإصلاحات الانتخابية الجارية وحول من يخلف الملك جورج الرابع الذي توفي في جوان 1830.

ولم تستمر الحكومة البريطانية في موقفها المعادي لفرنسا بخصوص القضية الجزائرية، بل عدلت عن سياستها فأيدتها ظاهريا بعد أن اعترفت بلويس فليب ملكا على العرش الفرنسي[1]. وبذلك كشفت بريطانيا عن نيتها الحقيقية تجاه الباب العالي وهذا ما يفسره رد السفير الإنجليزي على رئيس الكتاب العثماني يوم 29 جانفي 1831 من أن بريطانيا ليست مستعدة أن تخوض حربا مع فرنسا من أجل استرجاع الجزائر[2].

والمتتبع للأحداث يحكم على هذا التحول البريطاني بأنه جاء نتيجة لظروف ـة كانت تخدم مصالحها. وهذا راجع لوجود حلف مقدس عقد بين النمسا وبروسيا ضد الثورات، ولما أحست بريطانيا بأنها بقيت معزولة فضلت

1 - أرجند كوران. ص. 45-51.

2 - المرجع نفسه. ص. 44

الانضمام إلى فرنسا؛ خاصة بعد أن تبين لها أن الدولة العثمانية غير قادرة على استرجاع الجزائر.

أما ردود الفعل المؤيدة للحملة فكانت من طرف النمسا التي اهتمت بهذا الحدث اهتماما كبيرا لدرجة أنها كانت تراقب كل نشاطات الحكومة الفرنسية حول القضية الجزائرية. فهي من بين الدول التي كشفت النقاب عن فحوى تلك المفاوضات التي جرت بين الحكومة الفرنسية ومحمد علي باشا، وأعلنت معارضتها، إلا أنها سرعان ما غيرت رأيها وأعلنت مباركتها للحملة لما قررت الحكومة الفرنسية القيام بها.

وقدمت مساعدة تمثلت في إرسال بعض الضباط أمثال فردريك شوارتز امبرغ (Frédéric Chauartz Emberg)[1] الذي شارك في المعركة عام 1830 بجانب القوات الفرنسية وكان هدف النمسا من وراء ذلك تشجيع القادة الفرنسيين على القيام بهذه الحملة لتحويل اهتمام الحكومة الفرنسية إلى التوسع في مناطق أخرى غير مناطق أوروبية؛ لأنه من مصالح النمسا أن تبقى أوضاع أوروبا على حالها.

ولما قامت ثورة جويلية 1830 الفرنسية تخوفت النمسا فسعت بكل حزم إلى عقد معاهدة دفاعية مع كل من روسيا وبروسيا لغرض الحفاظ على النظام القائم والوقوف ضد أي عمل ثوري فرنسي. ثم أشارت على الباب العالي أن يتريث في مطالبته باسترجاع الجزائر حتى يتسنى الوقت الكافي للحكومة

1- Nettement, p. 289.

الفرنسية الجديدة كي تصر على الاحتفاظ بالجزائر. وبالرغم من موقفها هذا استطاعت بريطانيا أن تحافظ على علاقاتها الدبلوماسية الحسنة مع الباب العالي الذي كان يسعى بدوره لكسب ودها رغم أنه كان يعلم سوء نيتها. ولنفس الغرض تقريبا كان موقف بروسيا حين شجعت تلك الحملة. وكان هدفها أن يخلو لها الجو في مناطق من الأناضول وغيرها بعيدا عن خطر الثورة الفرنسية. لهذا عارضت الحملة على يد محمد علي باشا بينما أيدتها لما قامت بها فرنسا. ففي 13 ماي 1830 كتب القنصل الروسي الكونت بوزودي بورغو (B. Borgo) إلى القائد العام قائلا: إن الإمبراطور يتمنى أن يقبل ضابط متطوع تابع لوحدة الهندسة العسكرية ليشارك في الحملة وهو العقيد فيلوزولوف (Filosoloff)[1].

وكان غرض روسيا من هذا العمل تحويل اهتمام الحكومة الفرنسية إلى ميدان غير ميدان الشرق الأوروبي. وإثر قيام ثورة جويلية 1830 تخوفت الحكومة الروسية فطلبت من الباب العالي الذي كان كثير الانصياع إلى آرائها كي يلتزم الصمت حتى تتضح الأمور خوفا من أن يؤثر ذلك على الحكومة الفرنسية الجديدة فتغير موقفها من فكرة الاحتلال[2]. وبنفس المنوال سارت عليه الإمارات الأوروبية الأخرى كأسبانيا التي بعثت ضباطا للمشاركة في الحملة

---

1 - المصدر نفسه. ص. 259.

2 - لمزيد من المعلومات يراجع: Charles Roux

منهم العقيد دون أنطونيو لاسكان (Don Antonio Lascane) وخصصت مستشفى لمرضى الجيش الفرنسي[1].

4 – «المقاومة» في الجزائر وانعكاساتها على الرأي العام الفرنسي:

استطاعت الحملة الفرنسية أن تحقق هدفها من احتلال مدينة الجزائر على الرغم من استعداد الداي وأعوانه. ولجأ الداي وحاشيته إلى نابلي. وبعدها تولدت ردود فعل من أغلب الأوساط يمكن حصرها في موقفين هما:

4- 1 – ردود الفعل لدى الأتراك العثمانيين والكراغلة في الجزائر.

4 – 2 – «مقاومة» الأهالي الجزائريين وانعكاسات ذلك على الرأي العام الفرنسي.

4 – 1 – أما عن ردود الفعل لدى الأتراك العثمانيين والكراغلة فيمكن القول: أن الداي لم يجد بدا من الاستسلام حفاظا على مصالحه ومصالح أسرته. وبعد هذا الاستسلام طرد الفرنسيون أغلب الإنكشاريين واضطهدوا البقية منهم مما أدى إلى تذمرهم وسخطهم على الجيش الفرنسي ونظامه[2].

أما الكراغلة فتعامل أغلبهم مع الفرنسيين خوفا من تدهور مراكزهم الاقتصادية والاجتماعية. علاوة على مطامعهم السياسية التي أرادوا تحقيقها في ظروف سياسية جديدة خاصة وأن بعضهم كانوا يحملون فكرة حسنة عن

1-Nettement, p-p. 289-290

2 - ينظر: سيمون بفايفر، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر تعريب أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974، ص.109.

عظمة فرنسا وعدالتها أمثال حمدان خوجة الذين تأثروا بتلك النشـــرات الــتي كانت وزعت على السكان من تونس[1]، فتقرب منهم إلى قائد الحملة ومنحوه ثقتهم ومساعدتهم وحتى مساكنهم لتكون مقرا للمحاربين الفرنسيين، ونتيجـــة لهذه المواقف تعين الكثير منهم في مناصب هامة[2].

4 – 2 – «مقاومة» الأهالي الجزائريين وانعكاسات ذلك علـــى الـــرأي العـــام الفرنسي:

لم يف قادة الحملة بما تعهدوا به من احتـــرام الســـكان واحتـــرام دينـــهم وأملاكهم وفقا لما جاء في الاتفاقية المبرمة بين الداي حسين وقائد الحملـــة دي بورمون إذ انتهك أفراد الحملة الفرنسية حرمة السكان ووصل بهم الحال إلى أن نبشوا قبور أجداد الأهالي وصدّروا عظامها إلى فرنسا فأثار هـــذا التصـــرف سخط الأهالي[3]. ومن جهة أخرى كان قادة الحملة يعتقدون بأنه من الســـهل الاستيلاء على كل المدن الساحلية الجزائرية مثلما حـــدث للعاصـــمة، إلا أن

---

1 –وزعت نشرات من تونس على سكان الجزائر تمهيدا للغزو، يراجع:

Nettement, P.250..

2 - للمزيد من التوضيح، ينظر: حمدان خوجة، المرآة تعريب العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1975، ص-ص.213-214

3 - نقلت عظام بشرية إلى فرنسا على متن السفينة "لابون جوزفين" «Labon Joséphine» يراجع.حمدان، المرآة تعريب، محمد بن عبد الكريم، بيروت 1972، ص-ص.369-372.

الأهالي قاوموا التوسع الفرنسي بعنف ابتداء من عشية الاحتلال، فهب السكان ينهبون ممتلكات أهالي العاصمة بسهول متيجة ليعملوا على عدم تموين جيش الاحتلال[1]. وقطعوا طرق المواصلات داخل البلاد لعرقلة التوسع في الداخل ثم التفوا حول قادة جزائريين سواء في الغرب بالأمير عبد القادر أم في الشرق بالحاج أحمد باي. زيادة على التفافهم بالمرابطين المتواجدين في كافة أنحاء البلاد الذين اتحدوا ضد الخطر المتمثل في الفرنسيين وحرضوا القبائل ضدهم وقاوموا مدة طويلة بالرغم من تعاقب الهجمات الفرنسية عليهم.

ومهما يكن فقد فوجئ الفرنسيون بمقاومة القبائل التي أحدثت انعكاسات على نفوس القادة الفرنسيين وعلى نواب البرلمان والشعب الفرنسيين الأمر الذي أدى بالكثير من القادة إلى مراجعة مواقفهم والتشكك في قدرة فرنسا على مواصلة احتلالها لمناطق أخرى، فظهر أثر ذلك في المناقشات التي جرت حول سؤال هو: هل يكون من الأفضل الاحتفاظ بالجزائر أم التخلي عنها؟ لهذا عمل قادة الاحتلال على تطبيق بعض الأساليب اللينة بادئ الأمر لتثبيت أقدامهم كأن استبقوا بعض المناصب مثلما كانت عليه في العهد العثماني التركي مثل منصب آغا العرب. في الوقت الذي شرع فيه بعض القادة في تجهيز مدينة العاصمة لتكون مقرا رسميا للإدارة في الجزائر أملا في أن تتحكم في أغلب المناطق الجزائرية الأخرى[2].

---

1 - حمدان، المرآة، تعريب، الزبيري، ص.204

2 - تكونت مؤسسة البناء والتجهيز خاصة بمدينة الجزائر يوم 07-10-1831 يراجع:

وفي داخل البرلمان ارتفعت الأصوات المعارضة لفكرة التوسع داخل البلاد ولبقاء الجيش الفرنسي في الجزائر ونذكر من بين المعارضين الار(Allar) الذي نشر مقالا في أول سبتمبر 1830 قال فيه: إن مصيرنا في الجزائر سيكون مثل ما كان في المستعمرات السابقة، إننا نضيع وقتنا واقتصادنا من أجل أسباب لانهاية لها[1]. وكذلك دي صاد (De Sade)الذي دعا إلى أن يحكم الجزائر أهلها شرط أن تربط بين البلدين مصالح اقتصادية تستفيد فرنسا منها أكثر مما تستفيد من الاحتلال[2].

وكيفما كان الحال فقد نتج عن هذه المواقف الضاغطة أن أرسلت الحكومة الفرنسية لجنتين للتحقيق وأن يتداول على القيادة العامة في الجزائر ستة جنرالات من جويلية 1830 إلى 1833 وأن تتردد الحكومة الفرنسية مدة أربع سنوات في تحديد نوع الحكم الذي يناسب الجزائر.

5 - الخلاصة

مما تقدم يتبين لنا أن الحملة الفرنسية جاءت في ظروف مناسبة لفرنسا بعد أن سبقتها أحداث أوروبية ومحلية تحكمت فيها ووجهتها علاقات دولية وثنائية، الأمر الذي أدى إلى ردود فعل قوية، سواء داخل الجزائر م داخل

Genty de Bussy, De l'établissement français dans la régence d'Alger, t.2, F.Didot Frère, Paris 1835, P-P.124-125.

1 - نشر هذا المقال بعنوان:

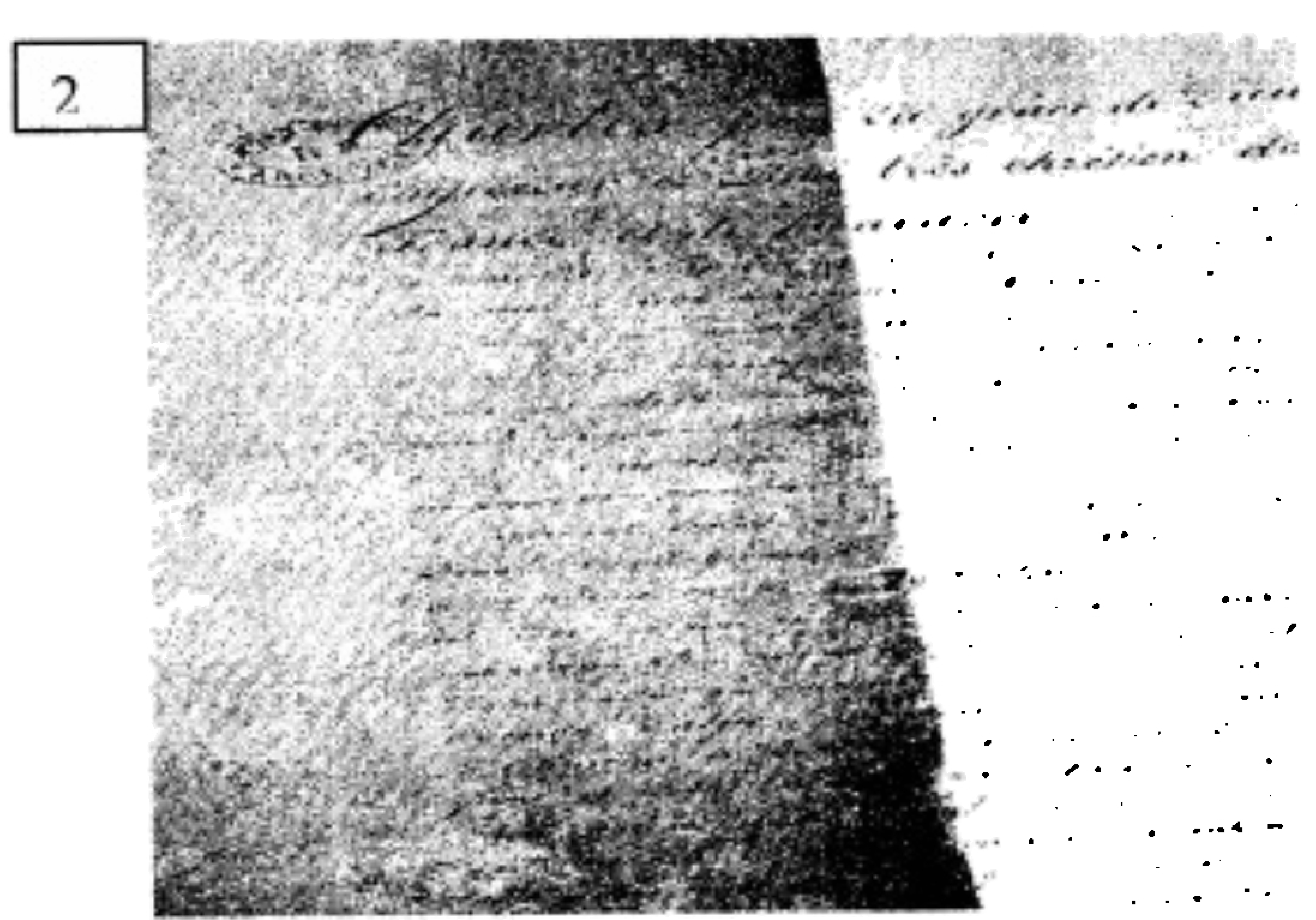
Considération sur la difficulté de coloniser la régence d'Alger et sur les résultats probables de cette colonisation. Sellingue, Paris 1830.

2 - ينظر: Nettement (A.), op.cit P.76

فرنسا، أم داخل الدول الأوروبية. حيث كانت بلاطات أوروبا مؤيدة فرنسا في قيامها بالغزو وكان ذلك لهدف أن يتحول خطر الثورة الفرنسية من أوروبا إلى بلاد بعيدة؛ خلاف بريطانيا والسلطنة العثمانية اللتان تخوفتا من هذا الإجراء بحكم عوامل كثيرة مست مصالحهما.

وكانت الأطراف الفرنسية مختلفة فيما بينها بين معارض ومشجع. وكانت تلك الأطراف هي الجناح الملكي الفرنسي والمثالي المسيحي والليبرالي. وكانت تلك المواقف تضعف وتقوى بفعل عوامل كثيرة منها بداية «المقاومة» الجزائرية التي لم تكن بنفس المستوى عبر أنحاء البلاد. وكيفما كان الحال فقد تمكنت الحملة الفرنسية من تحقيق هدفها على الرغم من ضعف الحكومة الفرنسية، وعلى الرغم مما كان يعرف عن الجزائر من قوة بحرية.





1- مشهد حادثة المروحة من وجهة النظر الفرنسية

2- مقطع من مراسلة الملك شارل العاشر إلى القنصل ديفال

التواجد الفرنسي في بجاية

تمهيد

الهدف من تقديم هذا الموضوع هو نشر وثيقة ليطّلع عليها الدارسون الـتي تبين لنا جانبا من السياسة الفرنسية المتبعة في احتلالها للجزائر[1].

احتلال بجاية:

من المعلوم أن الحملة الفرنسية تمكنت من احتلال الجزائر العاصمة ثم وجهت حملات أخرى قصد احتلال جناحي البلاد. ومن المناطق التي أعطتـها أهميـة كبيرة للسيطرة عليها في قطاع الشمال القسنطيني منطقة بجاية.

والواقع أن منطقة بجاية لم تكن موضع اهتمام الفرنسيين وحدهم فقط، وإنما كانت من النقاط الإستراتيجية التي جلبت اهتمام دول وجمهوريـات حـوض البحر المتوسط. إذ أنه خلال مرحلة الاحتلال الأولى وخلال المفاوضات الدولية حول البقاء أو الجلاء الفرنسي عن الجزائر راجت فكرة لمشروع قدمته بعـض دول حوض البحر المتوسط ومحتواه: ألاّ تكون الجزائر من نصيب فرنسا وحدها وإنما تقسم إلى مقاطعات، على أن تخضع كل منها إلى قـوة أوروبيـة معينـة وتكون على الوجه الآتي: تكون العاصمة من نصيب فرنسا. وتُضم عنابـة إلى

---

1 - مع الأسف لم يف رئيس تحرير مجلة الثقافة بنشر نص الوثيقة بجانب المقال مثلما كان الاتفاق. ينظر: الثقافة، الصادرة عن وزارة الثقافة، العدد 100، الجزائر 1988، ص-ص.73-81.

ممتلكات النمسا. وسكيكدة إلى سردينيا. وجيجل إلى نفوذ البابا. ووهران إلى أسبانيا. وأرزيو إلى إنجلترا على أن تكون بجاية من نصيب توسكانة [1].

ولكن هذه الفكرة لم تلق من التأييد ما يمكنها من النجاح خاصة من طرف فرنسا التي عملت بقوة لإبعاد اهتمام أي طرف أوروبي في بالجزائر. مثلما عملت على عدم إثارة قضية الجزائر ونقلها إلى قضية دولية.

ويعود اهتمام السلطة الفرنسية بمنطقة بجاية إلى أيام سابقة عن الاحتلال من ذلك أن الشركة الملكية الفرنسية سبق لها أن استوردت خلال الفترة الممتدة من سنة 1816 - 1827 كميات هائلة من المواد التجارية من شمال قسنطينة وكانت في مقدمتها الحبوب والجلود والصوف والزيت عن طريق الموانئ الساحلية كعنابة وبجاية[2].

وفور الاحتلال عام 1830 تضاعف اهتمام السلطة الفرنسية بمنطقة بجاية. بل ذهب بها الأمر إلى اعتبار مدينة بجاية مثابة مضيق جبل طارق.

وحسب رأي فيرو(Féraud) فإن شابا واسمه مراد قدم إلى دي بورمون يوم 3 أوت 1830 بصفته القائد على تلك الناحية وعرض مساعدته لاحتلال بجاية. فما كان من القائد العام إلا أن وجه سفينة حربية إلى المدينة. لكن السكان تمكنوا من قتل هذا الشاب وصد هذه الحملة.

---

1 - للمزيد من المعلومات يراجع:

Serres (J.), la politique turque en Afrique du Nord sous la monarchie de juillet, Paris 1925, P..34.

2- Edouard Solal, Philippeville et sa Région (1847-70), Alger (S.D.). P.36.

ولم يُرض ذلك الحكومة الفرنسية فوجهت النقيب لاموريسييه (Lamorcier) بمساعدة أحد أفراد سكان المنطقة واسمه بوستة للتعرف على مواطن الضعف للمدينة قصد احتلالها. فحصلت له معلومات تأكد من خلالها أنه بإمكان حملة قوامها ألف محارب أن تحتل المدينة. وبالفعل وجهت حملة يوم 4 سبتمبر 1833 وعززت بقوة بحرية انطلقت من طولون بقيادة تريزيل (Trizel) تمكنت هذه الحملة من الدخول إلى المدينة وتأسيس قيادة إدارية برئاسة لوازيه (Loisier). واستلم ديفيفيه (Divivier) القيادة الإدارية يوم 5 أكتوبر 1833 وهو الذي حاول التفاوض مع شيوخ المنطقة[1].

ولم يهدأ بال الجزائريين في هذه المنطقة إلا بعد أن حملوا السلاح بتحريض من الشيخ علي بن عيسى[2].

ومن أهم القبائل والأسر التي تصدت للفرنسيين وشكلت القوة والمنعة بنو عادل توجا (توجدا) وأولاد امقران وبنو عمران وبنو كسيلة وبن ورغليس

1-Charles Féraud. Hist. des Villes de Constantin (Bougie).Arnolet.Constantine1869. P-P. 236-255

- Cornulier (L.) la prise de Bonne et Bougie (1832-1833). Paris 1895. P-P. 301-305-333.

2 هذه شخصية ذات نفوذ كبير في شرق الجزائر وحتى في تونس. للمزيد يراجع.

Hamdan (K.) Le miroir.Trad. par H.D. Goetschy Paris 1833 P-P. 10-13.

وكذلك مذكرات علي ابن حمدان خوجة:

Souvenir d'un voyage d'Alger à Constantine à travers les montagnes trad. De Sauley (1838).

ويراجع كذلك: شلوصر.ف. قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837) ترجمة أبي العيد دودو. ش. و.ن ت. الجزائر 1977. ص. 21.

وبنو بومسعود وبنو حسين وبنو سيقوال وبنو شـــقفة وأولاد عبـــد الجبـــار وبونجمان وصنهاجة وزاوية شرفة ومسيمسة وبنو بويوسف وبنو عمروس وبنو وجان وبنو قرازم وبنو خراعيب وبنو ايدجر وبنو حليـــل وأولاد عليـــو أولاد عمريو ومزايا (ايمزاين) وحمدان وأولاد تامزيلت وبنو الحاج دحمان وفناين وبنو إسماعيل وعجيسة وبنو بوبكر وبنو إبراهيم وبنـــو ســـليمان واورباشـــة وأولاد الخالف وبنو ورتيرن وبنو مفلت وبنو شبانة وبنـــو محلـــى وملاحـــة وايمـــولا وتيغمرين وغيرهم[1]. وكان مجموعهم حوالي سبع وعشرين قبيلة عددهم حسب الإحصاءات التي قدمها رجال الاحتلال 22080 فردا. وقد تطور هذا العـــدد فوصل سنة 1866 حوالي 88 ألف[2].

ومن أشهر الشخصيات التي قاومت الفرنسيين منذ البداية سعد وليدو رابح الذي عقدت معه السلطة الفرنسية معاهدة سلام (سنتعرض إليها في حينه). ثم تولى بعده أخوه الشيخ أمزيان الذي قاد «المقاومة» بكل قوة وحسبما تشير إليه بعض الوثائق أن قوة سعد وليدو رابح كانت تبلغ 300 فارســـا[3]. وان كنـــا ذهبنا إلى الاعتقاد بأن قوة هذا الشيخ أكثر من هذا العدد، بحسب عدد سكان هذه الناحية، وإنما قد تكون هذه القوة هي التي كان يزود بها الحاج أحمد بـــاي خاصة وأن هذه الإحصائية قدمت في إطار إحصاء قوات أحمد باي.

1- A.M.G., H 226

2-Charles Féraud Hist. des Villes. P.236

3- A.M.G., H 226

ولم تمنع تلك «المقاومة» الفرنسيين من إقامة جهاز إداري بالمدينة التي عرفت تطورا كبيرا في مختلف مجالات الحياة؛ فمن الناحية العمرانية توسعت المدينة لتستوعب 3000 ساكنا منهم 1300 أوروبي[1].

ثم انكبت الإدارة الفرنسية على توسيع الميناء في المدينة وكذلك في تعبيد طرق المواصلات لربط بجاية بسطيف ابتداء من سنة 1849، وتوقفت الأشغال إثر حرب القرم 1853. ثم استأنفت الأشغال سنة 1856[2].

ومن جانب آخر فقد أنشئت محافظة مدنية في مدينة بجاية يوم 21 نوفمبر 1848. وبمرسوم مؤرخ يوم 10 ماي 1850 التحقت بجاية إداريا بقسنطينة. وفي عام 1858 عوض النظام الإداري بها من محافظة مدينة إلى بلدية حيث تشكل فيها مجلس بلدي[3].

وبذلك تكون بجاية قد دخلت علاقات من نوع جديد في ميادين كثيرة خاصة في الميدان الاقتصادي مع بجانة وسطيف وقسنطينة. ومع بلاد أخرى عن طريق البحر. والمعروف عن ناحية بجاية أنها غنية بمواد كثيرة منها: الزيت والتين والحبوب والبرتقال والليمون والأخشاب والملح والخضر بجانب المواد الصناعية كالحديد واستخراج ملح البارود.

1- Charles Féraud Hist. des Villes.P.37.

2 -المصدر نفسه. ص 40 -41.

3 - - كان عدد منازل مدينة بجاية عشية الاحتلال 200 منزلا، للمزيد يراجع كل من:

- Recueil, des Notices et mémoires. Province de Constantine. Vol.31. PP -98-118.
- Féraud , Hist. des Villes

ومن جانب آخر فقد صارت بجاية قلعة لانطلاق القوات الفرنسية في حملاتها الواسعة، نذكر منها حملة بادو على رأس قوة 6926 محارب مـاي - جـوان 1847 ضد سكان الضواحي من بجاية[1]. وكذلك حملة دي صال علـى رأس قوة 5562 محارب في ماي - جوان 1849 ضد بني سليمان وبني عباس وبني وجان وبني مليكة وبني خالد وبني ميمون[2]. وحملة سانت آرنو سـنة 1849، وغيرها من الحملات الكثيرة. ولنا أن نذكر أن احتلال مدينة جيجـل كـان انطلاقا من بجاية[3].

وبهذا تكون السلطة الفرنسية قد وظفت أكثر من وسيلة لإخضاع المنطقـة كالوسيلة الحربية والطرق العمرانية وكذلك طرق الدهاء والسياسة مـن هـذا اللون ما تم من معاهدة سلام بين الشيخ سعد وليدو رابح والسلطة الفرنسـية ونحاول التعرف عنه من خلال العرض لهذه الوثيقة.

1 - تقرير قائد أركان الحرب. في جويلية 1847. أرشيف وزارة الحربية. فانسان. H. 211

2 - المصدر نفسه.

3- St. ARNAUD, les premières années de l'Algérie française, C.F.E.B. 1978.P-P. 68-69

نص "المعاهدة":

هذه ترجمة لنسخة طبق الأصل من "معاهدة" سلام تمت بين السلطة الفرنسية والشيخ سعد وليدو رابح في أفريل 1835. وقبل عرضها يحسن بنا أن نلاحظ أنه لا يمكن مثلما سبق أن قلنا في حديثنا عن "معاهـــدة" الـــدوائر والزمالـــة المنشورة في مجلة الثقافة العدد 88. أنه لا يمكن تسمية هذه "المعاهدة" إلا "بعهد ولاء" أو اتفاق؛ وذلك لعدم توفر المواصفات القانونية فيها؛ لأنها لم تتم بـــين ندين، أي أن أحد طرفيها ليس شخصا قانونيا، لأن الشرعية القانونية في هـــذا التاريخ هي للحاج حمد باي، أو للأمير عبد القادر. ومع ذلك أمضيت تلـــك الاتفاقية بين الطرفين و لم تطبق مثلما أكد ذلك لامورسييه نفسه[1].

والملاحظة الثانية هي أن هذه الاتفاقية وضعت على نسختين الأولى تتشكل من ست مواد ومادة إضافية. والاتفاقية مؤرخة في 8 / 4 / 1835 وممضاة من طرف رجال من السلطة الفرنسية وهم لاموريسيه وحمرو ولوازي ومن طرف

---

1 - قدم لاموريسييه يوم 30 أفريل 1835 تحليلا عن وضعية بجاية بعد المعاهدة. يراجع أرشيف وزارة الحربية.فانسان. H.32 إذ ذكر لاموريسييه في هذا التحليل. أنه منذ 21 أفريل لم يظهر أثر للشيخ سعد وليدو رابح. ولكن يوم 24 أفريل وقع هجوم بالرصاص على موقع للفرنسيين من طرف قبيلة بني عادل. كما تعرض بعض رجال الاحتلال إلى هجمات واغتيالات. الأمر الذي دفع برجال الاحتلال إلى تجنب الدخول إلى المرتفعات والجبال، وإنما يجب الانسحاب والعودة إلى المدينة. واستمر الوضع هادئا إلى غاية يوم 26 أين قتل ثلاثة من رجال جيش الاحتلال بأم أغوراي.

الشيخ مداني بالنيابة عن الشيخ سعد وليدو رابح. أرسلت من طرف لاموريسيه إلى الحاكم العام للمصادقة عليها.

بينما النسخة الثانية تتكون من تسع مواد ممضاة من طرف نفس الموقعين الفرنسيين على النسخة الأولى. بالإضافة إلى توقيع وختم الحاكم العام الكونت ديرلون. ومؤرخة في يوم 9 أفريل 1835 ببجاية. بالإضافة إلى ذكر ختم الشيخ وليدو رابح مما يؤكد أن هاتين النسختين قد نقلتا عن نسخة أصلية لم نتمكن من العثور عليها.

ومن أقوى الاحتمالات أن الاتفاقية كتبت بلغتين عربية وفرنسية، مثلما أشير في هذه النسخة. مثلما جرت عليه العادة في المعاهدات والاتفاقيات التي تمت بين رجال الاحتلال الفرنسي والأطراف الجزائرية. ولكننا لم نتمكن من الاطلاع على النسخة العربية.

جاء فيها بما يمكن ترجمته: معاهدة سلام[1] بين الجنرال ديرلون عضو في مجلس النواب والحاكم العام للقوات الفرنسية بشمال إفريقيا، وبين سعادة الحكيم، والشجاع الشيخ وليدو رابح.

إن العقيد لاموريسيه مدير القوات والمفوض بكل الصلاحيات من لدن الحاكم العام والشيخ سعد وليدو رابح، يتفقان على ما يلي:

---

1 - أرشيف وزارة الحربية. فانسان. H. 32

المادة الأولى:

يدوم السلام والأمن بين الفرنسيين والقبائل في كل ضواحي مدينة بجاية. وابتداء من تاريخ التوقيع على هذه المعاهدة تنتهي العداوة والمصادمات بين وحدات الجيش الفرنسي المتحصنة في بجاية وكل القبائل الخاضعة وكل التي ستخضع لنفوذ الشيخ سعد وليدو رابح.

المادة الثانية:

الطرفان المتعاهدان ملزمان بكل ما في وسعهما وفي حدود نفوذهما بالعمل على فرض الأمن والسلام. على أن يحلا بمحبة كل القضايا التي ستظهر فيما بعد.

المادة الثالثة:

على أن تبقى هذه القوات الفرنسية تحتل مدينة بجاية ومواقعها الإستراتيجية ومراكزها الداخلية بما فيها كل المناطق التابعة لهذه المدينة والممتدة من الساحل الأمامي للمدينة، إلى غاية وادي بومسعود. ويمكن لهذه القوات أن تقوم بأشغال للتهيئة العمرانية التي من شأنها أن تكون مفيدة للطرفين وهما القوات الفرنسية والأهالي.

المادة الرابعة:

الحكومة الفرنسية راغبة في إعطاء الدليل انطلاقا من أوضاعها لصالح كل القبائل المسلمة الخاضعة أو التي ستخضع للشيخ سعد وليدو رابح. على أن تعلن الحكومة عن التزامها بالاحترام لكل المسلمين الأصدقاء الذين سيقطنون مدينة بجاية بحيث يكون بإمكانهم الاستقرار في أمن كامل. وتتولى السلطة

الفرنسية حمايتهم والمحافظة على أملاكهم ليمارسوا شعائرهم الدينية بحريـة وفي احترام كامل.

المادة الخامسة:

بإمكان كل القبائل والمسلمين الأصدقاء الدخول والخروج والتحول بحرية في مدينة بجاية وذلك وفقا للأوامر المعطاة، ومن أجل أمن المدينة والمراكز الأمامية. وأن أسواق المدينة ستفتح للقبائل على أن تضمن لهم الحماية لبيـع منتجـاتهم الفلاحية من الحبوب والمبيعات التي يأتون بها.

المادة السادسة:

يسمح الحاكم العام لتاجر يعينه الشيخ سعد وليدو رابح بالسكن في مدينـة بجاية. على أن تكون من صلاحياته تسوية كل القضايا المتعلقة بالتجارة الـتي ستظهر بين القبائل والفرنسيين والأوروبيين. والتحادث مع السلطة الفرنسية في هذا الشأن باسم الشيخ سعد وليدو رابح.

المادة السابعة:

للقبائل الصديقة أن تعقد معاهدات على نفس الخط الذي يتبعـه التجـار الفرنسيون في إطار العلاقات التجارية مع الخارج.

المادة الثامنة:

وفي حالة ما إذا رفضت بعض القبائل المتوطنة بضواحي بجاية الاعتراف بهذه المعاهدة والخضوع لها، وأعلنت عداوتها ضد أحد الطرفين المتعاهـدين يكـون على الشيخ سعد وليدو رابح الانضمام إلى الصف الفرنسي لمنع هذه القبائل من

لمديدها للسلام، ومن أجل استتباب الأمن الذي نصت عليه هــذه المعاهــدة. وعلى فرنسا من جهتها الانضمام إلى صف الشيخ ولصالحه.

المادة التاسعة:

تدخل هذه المعاهدة حيز التطبيق ولكولونال الهندســة العســكرية كامــل الصلاحيات في هذا الشأن. وأن أي أمر لا يكون ساري المفعول إلاّ بعــد أن تتم مراجعته وموافقة الحاكم العام.

كتبت على نسختين ببجاية يوم 9 أفريل 1835.

توقيع لاموريسييه وضع الختم سعد وليدو رابح

يصادق الحاكم العام على هذه المعاهدة التي تبقى ضرورية بــين الطــرفين المتعاقدين.

كتبت في الجزائر يوم (؟) أفريل 1835 توقيع الكونت ديرلون

وفي الأسفل ختمه.

عن نسخة طبق الأصل / قائد أركان الحرب العام.

توقيع جيرو

الخلاصة:

مما تقدم يمكن أن نخلص إلى القول إن الاحتلال الفرنسي لبجاية كان ضمن المشروع الواسع والهادف لاحتلال الجزائر كلها. وقد اعتمدت السلطة الفرنسية وسائل كثيرة لتحقيق ذلك الهدف وكان من أهمها القـوة المسـلحة وعقـد "معاهدة" مع أقوى مشايخ المنطقة قصد كسبه إلى الصف الفرنسـي وبالتـالي قصد القضاء على المقاومة. ويفهم من هذه "المعاهدة" أن من أهدافها توسـيع نفوذ الشيخ سعد وليدو رابح، وذلك بإخضاع أغلب القبائـل لـه "القبائـل الخاضعة أو التي ستخضع".

أيضا أن هذه "المعاهدة" لم تخدم إلا المصالح الفرنسية. لعل هذا من الأسباب التي دفعت هذا الشيخ وغيره من الجزائريين في هذه الناحية إلى عـدم الالتـزام ببنودها. حيث كانت «المقاومة» واسعة شملت معظم المناطق وطويلة الأمد.

المصادر والمراجع المعتمدة:

1. A.M.G. H226, H 211.
2. Ali Efendi Souvenir d'un voyage d'Alger à Constantine Trd. de Saulcy. 1838.
3. Charles Féraud, Hist. des Villes de Constantine (Bougie), Arnolet, Constantine 1869.
4. Cornulier, La prise de Bonne et Bougie (1832-1833), Paris 1895.
5. Edouard Solal, Philippe ville et sa Région (1847-70), Alger (S.D.).
6. Hamdan Khodja, Le miroir. Trad. par H.D. / Goetschy Paris 1833.
7. St. ARNAUD, Les premières années de l'Algérie française, C.F.E.B. 1978
8. -Serres (J.) La politique turque en Afrique du Nord sous la monarchie de juillet. Paris 1925.

Ministère de la Guerre

Copie du traité envoyé par M. le Colonel Lamoricière

(N° 1.)

Traité de paix entre M. le Gouverneur Général d'Alger et de ses dépendances et M. le [illegible] Cheikh Saad Ouled ou Rabah

Le Colonel Lamoricière, Directeur des [illegible] porteur des pleins pouvoirs du Gouverneur [illegible] et le Cheikh Saad Ouled ou Rabah, font [illegible] de ce qui suit :

Article 1er

A dater du jour de la signature du présent traité, toute hostilité cessera entre les Français et [illegible] Kabyles de [illegible] qui [illegible] Ouled ou Rabah.

Les deux parties contractantes s'obligent à maintenir [illegible] ce qui est en leur pouvoir la paix la plus durable dans ce pays, trop longtemps [illegible] des [illegible].

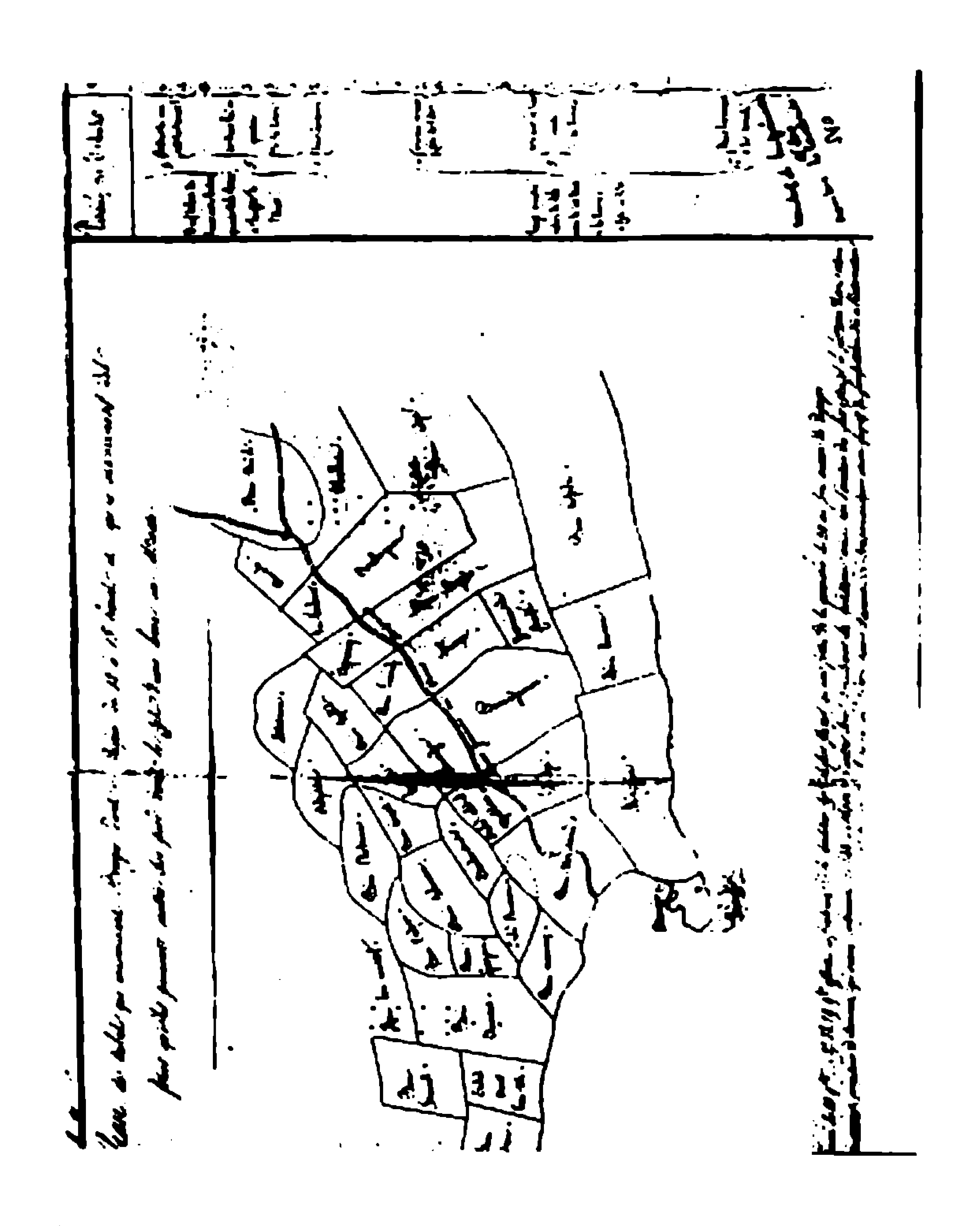
Art. 2

Les troupes françaises continueront à occuper la ville de Bougie, tous ses forts, tous ses [illegible] ainsi que tout le territoire qui dépend de la ville et comprend toute la plaine en avant jusqu'à [illegible] cette partie de la plaine [illegible] insuffisante qu'il faut absolument [illegible] le [illegible] ne peut [illegible] que dans [illegible] rivière [illegible] Bougie.

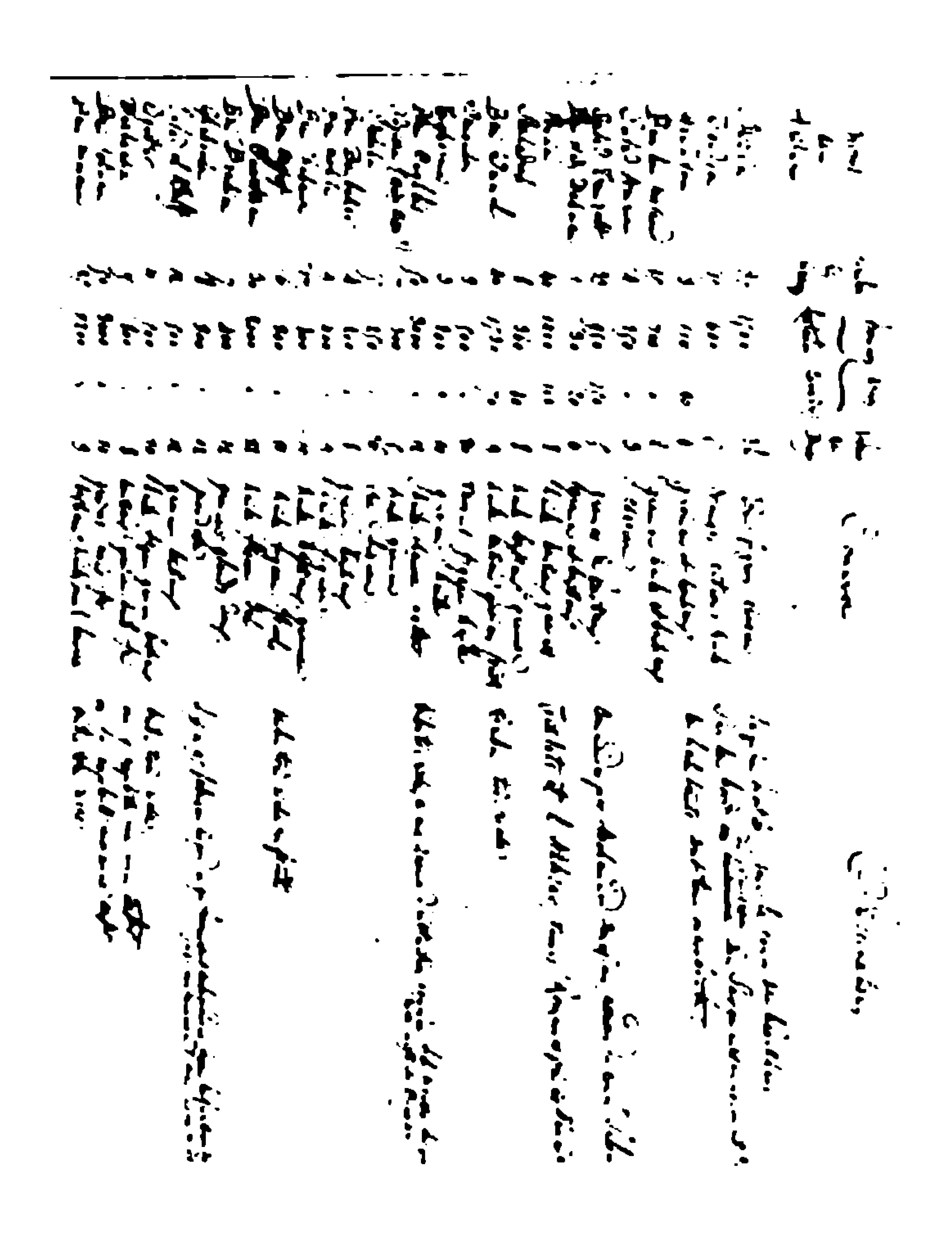
Art. 3

Le gouvernement français pour [illegible] s'est confié dans les dispositions [illegible] du Cheikh Ouled ou Rabah [illegible]

صفحة من معاهدة سعد وليدو رابح



أهم الأعراش المحيطة ببجاية أثناء الدخول الفرنسي



أهم الأعراش والقرى والمنتجات التجارية لمدينة
بجاية أثناء الدخول الفرنسي

معاهدة الدوائر والزمالة

(16 جوان 1835)[1]

1 - نشر هذا المقال في: الثقافة، العدد، 88، وزارة الثقافة، الجزائر 1985، ص-ص.123-137.

أهدف من تقديم هذا الموضوع إلى عرض وثيقة هامة تتعلق بجانب من السياسة الفرنسية. وبموقف شريحة معينة من المجتمع الجزائري تجاه التوسع الفرنسي، وأعني بهذه الوثيقة "المعاهدة" التي تمت بين السلطة الفرنسية وقبيلتي الدوائر والزمالة. هذه المعاهدة التي لم تحظ بدراسة وافية[1]. وعليه أتناول هذا الموضوع بناء على النقاط الآتية:

1- التوسع الفرنسي ناحية الغرب الجزائري

2 - موجز عن أوضاع الريف الاجتماعية في قطاع الغرب الجزائري

3 - الجهاد ضد التوسع الفرنسي

4 - معاهدة الدوائر والزمالة

أولا: التوسع الفرنسي ناحية الغرب الجزائري:

من المعروف أن الحملة الفرنسية تمكنت من تحقيق هدفها باحتلال مدينة الجزائر العاصمة (1830) في وقت كانت فيه مملكة شارل العاشر ضعيفة في مختلف الجوانب[2]. وفور سقوط العاصمة وجهت حملات عسكرية شرقا وغربا

---

1 - ينظر:

Walsin -Esterhazy. Notice historique sur le Makhzen d'Oran. Oran 1849.

2 - اسمه الكونت دارتوا (C.d'Artois) وهو أخو لويس الرابع عشر والثامن عشر، تولى العرش يوم 1824/9/16 عن عمر 77 سنة، وتلقب بشارل العاشر. لم يكن محبوبا من طرف عامة الفرنسيين وأهم التيارات المناهضة في البلاد.للمزيد من المعلومات براجع.فشر.أ. تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، ط.5، دار المعارف المصرية (؟)، ص139.وللباحث أن يتساءل عن سبب انتصار

قصد الاستيلاء على جناحي البلاد. ففي قطاع الغرب الجزائري توجهت حملة عسكرية إلى مقاطعة وهران تمكنت من احتلال المرسى الكبير. وبعدها استدعيت إلى العاصمة. ووجهت حملة أخرى إلى ناحية الغرب سلم باي وهران على إثرها مفاتيح المدينة إلى رجال الحملة الفرنسية[1].

الحملة الفرنسية على وحاق الجزائر سياسيا في وقت كانت تعيش فيه فرنسا هزات عنيفة في حياتها الاجتماعية والسياسية والعسكرية وحتى الإدارية. إنني لا أرى سبب الانتصار في قوة الجيش الفرنسي بقدر ما يعود سبب ذلك إلى:

1-السند الأوروبي، لأن الحملة كانت أوروبية أساسا 2- ضعف وحاق الجزائر الذي كان يمثل ضعف الدولة العثمانية التي صارت ولايتها مفككة كالفسيفساء المتناثرة.3- مؤازرة الكنيسة للحملة 4- دعم البرجوازية الفرنسية والتيارات الفكية الأوروبية الساعية إلى المزيد من السيطرة على الأسواق.5-الظروف الدولية المناسبة للاحتلال. يعني هذا أن الجزائر كانت تمثل قوة المسلمين في حوض البحر المتوسط في الوقت الذي كانت تمثل فيه فرنسا قوة المسيحيين في هذا الحوض. فالصراع كان حضاريا من جانب آخر.

ومن جانب آخر كان على باي وهران وهو حسين أن يستسلم لرجال السلطة الفرنسية وذلك تحت ضغط جملة من العوامل أهمها: وقوف أقوى التشكيلات السكانية بالمنطقة ضده كرد فعل لطبيعة وسلوك النظام العثماني تجاههم الذي ولد ردود فعل انفصالية. بجانب اقتناعه من أنه غير كفء لمواجهة جيش الاحتلال خاصة وأن سنه تقدم إلى الشيخوخة فكان لزاما عليه العمل بأحد الحلول الثلاثة: 1- إما الفرار من المدينة. 2- وإما تسليم المدينة إلى الفرنسيين. 3- أو وضع نفسه تحت حماية أقوى القبائل الجزائرية. فأخذ بهذا الحل الأخير بأن أرسل إلى محي الدين والد الأمير عبد القادر طالبا الحماية، إلا أن معظم رجال بني هاشم وفي مقدمتهم "الأمير" عبد القادر رفضوا تقديم الحماية وقبوله في

ومن ثم شرع القائد الفرنسي بوابيه (Boyer) ابتـــداء مـــن أوت 1831 في تنظيم الأمور قصد التوسع أكثر، والسيطرة تجاريا واجتماعيا وإداريا على هـــذا القطاع.

ومن جانب الجزائريين كانت الاستعدادات حثيثة للجهاد حيث قـــام الأمير عبد القادر بمعية الشيوخ من حوله بحركة جريئة دلـــت علـــى عمقهـــا ومسايرتها لمتطلبات العصر إذ استطاع أن يؤسس نظام حكم هادف إلى تكوين دولة قوية خلال مدة قصيرة وذلك بفضل سكان المنطقة الذين هبوا والتحمـــوا بزعيم هذه الدولة الفتية لدرء خطر خارجي هدد كيانها. وتمثل ذلك الالتحـــام في مواقف عديدة بدايتها البيعة ثم الوقوف صفا واحدا في ميدان المعارك. الأمر الذي يجعلنا نعتبر هذه المبايعة، وهذا الالتفاف صفا واحدا البدايـــة الصـــحيحة للمقاومة "الوطنية" بل البداية القوية للحركة الوطنيـــة الجزائريـــة في صـــورتها الواسعة.

وقد تجاوب الأمير عبد القادر مع هذه الروح "الوطنية" العالية بأن ســـخر كل إمكاناته، وقسم مواطن نفوذه إلى أقاليم وعين على كل منها من كانـــت

صفوفهم فما كان على الباي إلا أن استسلم للفرنسيين. ينظر محمد بن عبد القادر (الأمير)، تحفة الزائر، ج1. المطبعة التجارية الإسكندرية 1903، ص103-104. وكذلك تشرشل، ش.هـــ.، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة، أبو القاسم سعد الله،ش.و.ن.ت. والدار التونسية للنشر، 1974، ص. 50 -52.

هده الوظائف تطلبهم لا من كانوا يطلبونها. ووجه نداءات إلى القبائل قصد حمل السلاح للجهاد[1].

وقد لبت أغلب القبائل بالمنطقة النداء وأعلنت عن رغبتها الخالصة في الجهاد ضد "الكفار" وكان من بين تلك القبائل الدوائر والزمالة وهما موضع الوثيقة التي سنقدمها.

إذن التزمت تلك القبائل الشعور "الوطني" وقادت «مقاومة» عنيفة أحدثت ردود فعل قوية في الوسط الفرنسي خاصة الرسمي منه. والدال على ذلك تعيين دي ميشال (Desmichels) مكان بواييه حاكما على وهران في فيفري سنة 1833. وأيضا ما وقع بجلسات البرلمان الذي طالب أعضاءه بضرورة الانسحاب الفوري من الجزائر. إذ كتب ذي صاد يوم 1834/4/28 وهو أحد النواب يقول بما أمكن ترجمته: يوجد في الغرب الجزائري 100 ألف محارب، يمكن للأمير أن يتولاها بنفسه، فيشكل بها خطرا علينا لأنه الشخص الوحيد المناهض لوجودنا[2].

ويفهم من خلال التصريحات الكثيرة لرجال السلطة الفرنسية أن قطاع الغرب الجزائري على جانب كبير من الأهمية بتشكيلاته الاجتماعية وثرواته الطبيعية ونقطه الحساسة.

---

1 - خاصة نداء 22 نوفمبر 1832، ينظر: تشرشل.ص-ص.60.

2- Cokenpot (Ch.), Traité Desmichels, Ernest Leroux, Paris 1924, p.103.

ثانيا: موجز عن أوضاع الريف الاجتماعية بقطاع الغرب الجزائري:

كان سكان الريف في قطاع الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني كما هو الحال في كامل أنحاء الوطن يشكلون قاعدة الهرم الاجتماعي من حيث الكثرة إذ كانت نسبتهم تفوق 90 % من مجموع السكان[1].

ويتميز الريف في قطاع الغرب الجزائري بسكان السهول وهم حديثو الاستقرار وبسكان الجبال وهم الأقدم من حيث الاستقرار.

ويتباين سكان السهول عن سكان الجبال في كون الأوائل يعتمدون أساسا على السيف /أجواد/ وبخاصة منهم قبائل المخزن وفي مقدمتهم الزمالة والدوائر المعنيتين بالموضوع. في حين كان سكان الجبال غير قبائل المخزن يستمدون قوتهم أساسا من الدين والعراقة أشرافا كانوا أو مرابطين (الصالحون) (عن صدق أو عن وهم).

ولهذا كان من الطبيعي أن يحدث بينهم صدام بفعل نظرة كل طرف للآخر، فقبائل السيف /الأجواد/ المخزن/ كانوا ينظرون إلى المرابطين بشيء من الدناءة الهادفة إلى جمع الثروة والمتسترة بقناع الدين والادعاء بالشرف. أما المرابطون فقد كانوا يتهمون الأجواد بالتهور والعنف قصد النهب[2]. وقد استفادت

---

1 - تضاربت الأرقام حول عدد السكان الجزائريين إذ كانت تتراوح ما بين 10 مليون مثلما قال حمدان بن عثمان خوجة في كتابه: .Le miroir, Goetschy, Paris 1833, p.320.

وما بين 3 ملايين عند ياكونو.

Yacono, " Peut- on évaluer la population de l'Algérie vers 1830 ", in. Revue africaine, 1954, p-p.277-307.

2 - تشرشل، حياة الأمير، ص.41.

السلطة الفرنسية من هذا الصدام بأن عملت على استمالة الكثير من القبائل إلى صفها. ويتساءل الباحث عن الأسباب التي دفعت تلك القبائل إلى التعامل مع الفرنسيين. ففي رأينا أن أهم العوامل هي:

1. سياسة رجال الاحتلال القائمة على التفرقة بين الصفوف الجزائرية.

2. الإغراء الذي أوهمت به السلطة الفرنسية بعض الشيوخ، ومفادها أن فرنسا ستترك البلاد لأهلها.

3. طبيعة التكوين للقبائل، إذ أن هناك قبائل المخزن الاصطناعية التي كانت تعتمد على قوة السيف /الأجواد/ وهناك قبائل عريقة تعتمد أساسا على الجانب الروحي والشرف. فطبيعة النزاع فيما بينها أدى إلى ميل بعضها إلى الصف الفرنسي.

4. عامل تاريخي ويتمثل في أن بعض القبائل كانت موضع السيادة على رقعة من الأرض بفعل السياسة العثمانية المؤازرة لبعض القبائل على حساب قبائل أخرى. فلما جاء الاحتلال تعامل بعضها مع القوة الفرنسية نكاية في القبائل الأخرى مثل الموقف الذي التزمت به الدوائر والزمالة.

5. عامل الاختلاف بين الطرقيين الذي أدى إلى انقسام الصف، مثلا التيجانية وفروع من الشاذلية التي ثارت ضد قبائل الأمير.

6. - شعور بعض القبائل بقدرتها على القيادة وتحرير "الوطن" دون أن تعلن خضوعها لقبيلة أخرى، بل رأت نفسها على حق شرعي في قيادة «المقاومة» "الوطنية" وفرض نفسها على القبائل الأخرى أن تخضع لها.

7. - بجانب النظرة الضيقة لبعض القبائل التي رأت في الانضمام إلى صف فرنسا تحقيقا لمصالحها.

وبالرغم من هذا التباين المحكوم إلى الظروف التاريخية والسياسية وحتى الجغرافية فإن المستنتج هو أن الطرفين هما اللذان كانا يوجهان مستوى الفكر الجزائري. وإن كان يشهد للقبائل المرابطية بالدور الأكبر في إعلان ومواصلة الجهاد المقدس، ومنهم قبيلة بني هاشم بقيادة الأمير عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن المختار.

ومن القبائل التي يمكن أن يفسر سبب ميلها إلى سلطة الاحتلال بمثل هذه العوامل هي كل من الدوائر والزمالة اللتان لعبتا أدوارا هامة في العهد العثماني بممارستها للسلطة على القبائل الرعوية وجمعها للضرائب منها[1].

---

1 - للمزيد من التعرف على دور هذه القبائل وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية يراجع: ناصر الدين سعيدوني "دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايلك في الجزائر"، الأصالة، عدد 32، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر 1976، ص46-63، وقد نشر هذا المقال في كتابه: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث وكذلك كتابه: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية،(1800-180) ش،و،ن،ت، الجزائر 1979

ومن هذا الوضع الاجتماعي لهذه الشريحة من مجتمع الريف في قطاع الغرب يمكن التعرف على موقفها من الاحتلال الفرنسي. هذا الموقف الذي سنعرف جانبا منه من خلال وثيقة المعاهدة المعنية بالتقدم.

ثالثا: الجهاد ضد التوسع الفرنسي

هذا الجهاد الذي فرضته ظروف الاستعمار الفرنسي بدافع الحفاظ على الأرض وحماية الدين والكرامة، حيث هبت معظم التشكيلات الاجتماعية أسر وعشائر وقبائل في عصبية حادة قائمة على رابطتين هما رابطة الدم ورابطة الدين /الملة المحمدية/ حيث تطورت هاتان الرابطتان وظهرتا في رابطة قوية هي ما يعبر عنها في العصر الحديث برابطة الوطن القائمة على الشعور المشترك والمصير المشترك. ومن ثم أصبحت العصبية عند أولئك السكان نمطا سياسيا ومبدأ مقدسا. فالتعصب هنا خدمة للحق ومحاربة للباطل "الكافر".

والذي يهمنا في هذا الجانب هو قبيلة كل من الزمالة والدوائر اللتين عرفتا بهذين الاسمين نظرا للأدوار التي كانتا تقومان بها[1] خدمة للنظام التركي - العثماني العسكري والإداري وحتى الاقتصادي، إذن فهي قبائل مخزنية اصطناعية اكتسبت حظوة كبيرة من لدن رجال النظام القائم، تملكت على

---

1 - الدوائر والزمالة خليط من أجناس، كانوا في خدمة البايات حيث كانوا يقومون بخدمات في دائرة الخيام سموا (دوائر) ويحملون أثقال العسكر فسموا (الزمالة) عن تحفة الزائر، ج. 1، ص.138.

منوالها أراض شاسعة استقرت عليها وتكامل كيالها بتكامل النظام العثماني نفسه بحكم المصالح المتبادلة.

وبعد مبايعة عبد القادر أميرا على البلاد وجه نداء إلى كل القبائل الجزائرية قصد الانضمام إلى صفه للقيام بالجهاد المقدس، فلبت الكثيرات منها النداء ورفض البعض ذلك ومنها:

- قبيلة فليتة بالشلف برئاسة شيخها سيدي العريبي.
- بنو انجاد برئاسة شيخها الغماري.
- محمد بن نونة الذي ادعى حكم تلمسان باسم سلطان المغرب.
- قبائل المخزن برئاسة شيخها مصطفى بن إسماعيل.

ومن مظاهر ذلك الرفض الامتناع عن دفع الضرائب وإعلان الحرب ضد الأمير والانضمام إلى فرنسا. وعلى ما يبدو أن موقف هؤلاء كان في البداية محكوما إلى نظرقم تجاه الأمير عبد القادر على أساس أنه من المرابطين الذي يهدد مصالحهم. وإلى موقعهم ومركزهم الذي كان موضع عز في العهد العثماني. وإلى التأثر بما كان يروج له خير الدين نائب الباي أحمد حاكم تونس[1] من أخبار مفادها أن فرنسا لن تتدخل في شؤون الجزائريين وفي عاداقم وتقاليدهم ودينهم. وأن إدارة البلاد ستكون من حق مشايخ المنطقة.

---

1 - الملاحظ أنه بمجرد أن سقطت مدينة العاصمة أعلن قسم كبير من سكان تلمسان ولاءهم للسلطان المغربي فقبل السلطان ذلك على الرغم من معارضة علماء فاس، وبعث السلطان مولاي عبد الرحمن أخاه علي، حيث استقبل من طرف قسم كبير من سكان المدينة وضواحيها خلاف الكراغلة وقبائل الدوائر والزمالة الذين أعلنوا رفضهم لهذا الولاء

ولكنه سرعان ما تراجع شيوخ المنطقة عن موقفهم خاصة حين أدركوا نوايا السلطة الفرنسية، فمالت الكثير من القبائل إلى صف الأمير عبد القادر والتزمت العمل بمخططاته القائمة أساسا على الجهاد وعلى بناء دولة وعلى مقاطعة الأسواق الفرفسية؛ إذ أنه سبق للأمير أن أرسل إلى الشيوخ والمرابطين يحثهم على تحريض السكان وإقناعهم بعدم ممارسة التجارة في الأسواق التي هي تحت النفوذ الفرنسي. وبذلك تمكن الأمير من تحويل الشعور بالرغبة في التجارة إلى الشعور "بالوطني" وبالدفاع عنه.

وكان الأمير يهدف من وراء عملية المقاطعة التجارية إلى فرض حصار مدمر لإضعاف قوة فرنسا في الجزائر. وهذه الإستراتيجية سبق وأن طبقها كثير من

المغربي فتدخل القائد العام كلوزال عن طريق قنصل فرنسا بطانجة (M. Delaporte) دي لابورت كي يعمل على منع السلطان من القيام بإخضاع هذه القبائل.ثم أرسل من جهته إلى السلطان العقيد أوفراي (Auvray) لمنع السلطان من تحقيق مشروعه. ثم جهز كلوزال حملة على تلمسان، ولما فشل فتح باب التفاوض مع باي تونس قصد بيع مقاطعة الغرب له. للمزيد من المعلومات يراجع: Bernard,Augustin, L'Algérie, T.II, Plon 1930. وكذلك: التميمي عبد الجليل "مغامرة الحملة التونسية على وهران 1831"، المجلة التاريخية المغربية، عدد5 ، تونس 1976، ص5-19.

القادة ومنهم نابليون بونابرت حين فرض الحصار القاري على بريطانيا (1804-1811)[1].

وهو ما لم تكن ترغب فيه السلطة الفرنسية لهذا قام رحال جيشها بتوجيه حملة بقيادة دي ميشال في 5 أوت 1833 قوما 3000 محارب مزودة بثلاثة مدافع ضد قبيلتي الدوائر والزمالة للانتقام منها على ما التزمت به من حصار ضد المصلحة الفرنسية.

وقد حققت الحملة الفرنسية شيئا من الانتصارات خاصة في البداية لأن النجدة من قوات الأمير وصلت في الوقت المناسب وكان هو شخصيا على قائدها.

ولما كان موطن القبيلتين عرضة لخطر دائم بحكم قربهما من دائرة المعارك الجارية عن مسافة غير طويلة من مدينتي وهران ومستغانم قرر الأمير نقلهما وتوطينهما في سهول ما وراء تلمسان، وذلك قصد حمايتهما ومنعهما من الانضمام إلى الصف الفرنسي، ولجعلها قوة في صفه في أي وقت مناسب.

استمرت الأوضاع تتأرجح من جانب الطرفين بين حذر وترقب حينا، وصدام أحيانا إلى أن تم عقد المعاهدة المعروفة بمعاهدة دي ميشال يوم

1 - أدرك نابليون عدم قدرته على مواجهة إنجلترا بحريا ففرض عليها هذا الحصار بأن أرغم الكثير من الدول منها النمسا وبروسيا وروسيا وأسبانيا وحتى الباب العالي على مقاطعة البضائع والسفن الإنجليزية.

1834/2/28 تم بمقتضاها اعتراف كل طرف بسيادة الآخر على جزء غير قليل من أرض الوطن[1].

تشير دلالات إلى أن هذه المعاهدة كانت لأكثر من ضرورة بالنسبة للطرفين المتنازعين، ومن تلك الدلالات ما قاله دي ميشال في كتابه من أن المعاهدة كانت ضرورية مع الأمير عبد القادر[2].

ولدت هذه المعاهدة ردود فعل قوية في أوساط كثيرة جزائرية وفرنسية، حيث اعترض الرأي الرسمي الفرنسي على هذه المعاهدة، ولعل هذا ما يفسر سبب العزل لدي مشال وتعيين تريزيل خلفا له، وكان تريزيل على جانب كبير من الكفاءة العسكرية والدراية بأمور البلاد، إذ سبق له أن تولى مهاما كثيرة أهمها قيادة الأركان وقام ببعض الحملات منها على البليدة عهد دو روفيكو(De Rovigo) (1832-1833)[3].

وأولى الأعمال التي قام بها تريزيل نقضه للمعاهدة بالسعي إلى عقد صلح منفرد مع القبائل بمعزل عن قبائل الدوائر والزمالة يوم 16 جوان 1835. ومن جانب آخر مكنت المعاهدة (1834/2/28) الأمير أن يتفرغ لإخضاع وتنظيم

---

1 - للمزيد من التعرف على محتوى هذه المعاهدة يراجع: تشرشل.ص78-79 وكذلك يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري الدار العربية للكتاب تونس 1983. ص.52-53.

2- Desmichels, Oran sous le commandement du général Desmichels, Anselin, Paris 1835, 1e partie.

3- Moniteur algérien. No 44 (du 24 novembre 11832).

الداخل، إذ يتضح من المادة الخبرية الكثيرة نسبيا وخاصة ما كتبه ديفيفيه (Duvivier) حين قال: تفرغ الأمير للقضاء على الشغب والردة بالداخل وتمكن من بسط نفوذه إلى مناطق كثيرة مستخدما الأسلحة التي حصل عليها من طرف الفرنسيين بمقتضى معاهدة دي ميشال[1].

فتوجه الأمير إلى الغرب وأخضع قبيلة رياح فيما وراء تلمسان ثم بني خلاد فتصدت له قبيلة الدوائر بعد أن انضمت إلى الشيخ ابن الغماري بالمهراز غرب التافنة وذلك في جويلية 1834، فدخل الأمير إلى تلمسان، فما كان على شيخ الدوائر وهو مصطفى بن إسماعيل إلا أن طلب من أفراد القبيلة اللجوء إلى أرض المغرب الأقصى و لم يتردد في طلب الحماية من سلطان المغرب إلا أن مشايخ القبيلة رفضوا هذا الطلب وأعلنوا اعتصامهم بقوة الأمير الذي يعني اعتصامهم بالحق وبحرمة الدين و"الوطن" وعزة النفس، فما كان من الأمير إلا أن تجاوب مع هذا الموقف وبعث لهم الأمان وعين الشيخ المازري قائدا على قبيلة الدوائر[2]. وعاين الحاكم العام الكونت درلون الأوضاع في وهران في شهر جوان 1835 في الوقت الذي كان فيه حاكم وهران تريزل متصلبا غير راغب في التقرب إلى الأمير بشكل أو بآخر إلا بقوة السلاح، وهو خلاف ما كان يطمح إليه كل من الأمير والحاكم العام إذ كانا يرغبان الصلح. ولعل هذا ما يفسر التعليمات التي وجهها الحاكم العام إلى تريزل قصد العمل على التقرب من الأمير.

1- Papiers Duvivier. "Note sur les dernières opérations de l'Emir Abdelkader (1834-1835)" ,in, A.M.G, H.32.

2 - محمد بن عبد القادر (الأمير)، تحفة الزائر، ج1، ص137-138.

في الوقت الذي استجدت فيه أحداث كثيرة كان منها ميل الدوائر والزمالة إلى السلطة الفرنسية، أثناء محاولة عودتهم من ضواحي تلمسان إلى مواطنهم الأولى فحاول الأمير منعهم بالقوة الأمر الذي دفعهم إلى طلب الحماية طواعية من رجال السلطة الفرنسية. وقد لبى رجال السلطة وفي مقدمتهم تريزل دعوتهم حيث أرسل فرقة من الجيش الفرنسي لنصرتهم بمسرغين وانتهى هذا التدخل بتوقيع معاهدة ذات اثني عشر مادة يوم 16 جوان 1835[1].

جاءت هذه المعاهدة في وقت كان فيه الأمير عبد القادر في حاجة ماسة إلى الهدوء والاستقرار، ولم يكن مستعدا بقوة للدخول في حروب ومعارك ضد قوات فرنسا فما كان منه إلا أن وجه احتجاجا إلى تريزيل يذكره بما تم في معاهدة دي ميشال المذكور في أحد موادها على ألا تسمح السلطة الفرنسية للقبائل بالاحتماء بها وأن تعيد الفارين. وقد أجابه تريزيل بأن ذلك ينطبق على الأفراد لا على القبائل. وكان الأمير يعتمد في توجيه هذا الاحتجاج بجانب ما تم في معاهدة دي ميشال على أنه الوحيد صاحب الحق الشرعي في عقد أية معاهدة من أي نوع كان مع السلطة الفرنسية. حيث قال إلى تريزيل: "إنك تعلم الشروط التي التزم بها دي ميشال معي قبل أن تأتي إلى وهران وأنت نفسك وعدت باحترامها. وبمقتضى تلك الشروط فإن كل عربي يرتكب جنحة أو جريمة ثم يفر طالبا اللجوء أو الحماية يجب إعادته إليّ حتى ولو كانت القضية تتعلق بأكثر من فرد واحد وما أقوى حجتي في هذه النقطة عندما تصبح القضية

---

1 - يقول نشرشل في كتابه السابق الذكر: إن مواد المعاهدة إحدى عشر، ص.96.

قضية قبائل بأسرها فارة مني وملتجئة إليك. أن الدوائر والزمالة هــم رعــيتي. وبناء على قانوننا فإن لي الحق في أن أفعل بهم ما أشاء. فإذا ســحبت منــهم حمايتك تركتهم يطيعونني، كما كانوا، فذلك ما أريد، وإذا كــان موقفــك عكس ذلك، فأصررت على التنكر لالتزاماتك فاستدع في الحال قنصلك مــن مدينة معسكر، لأنني لن أرفع يدي عن قبائل الدوائر والزمالة، حتى ولو دخلوا وراء حصون وهران إلا بعد أن يندموا ويتوبوا. وبالإضافة إلى ذلك فإن ديــني يمنعني من السماح لمسلم أن يكون تحت سلطة مسيحي فاختر ما يحلو لــك أو أن اله الحرب سيحكم بيننا"[1].

وكانت لهذه المعاهدة مع شيوخ الدوائر نتائج كثيرة على الرأي العام داخل الجزائر وحتى داخل فرنسا نفسها. ويكفي القول إنها تعد من أكبر العوامل التي دفعت الطرفين الفرنسي والأمير إلى نقض معاهدة دي ميشــال والــدخول في معارك من جديد. فقد جهز تريزيل حملة قوتها 5000 مــن المشــاة بجانــب وحدات من القناصة مدعمة بقطع من المدفعية وهجم بها يوم 26 جوان 1835 على قبائل عربية وفي مقدمتها بني هاشم والغرابة الأمر الذي فرض على الأمير النزول إلى ميدان المعارك التي انتهت بانتصار الأمير عبد القادر انتصارا كــبيرا خاصة في معركة وادي المبرة الذي غير اسمه إلى وادي المقطع.

ونتج عن هذا الانتصار رد فعل كبير في أوساط مختلفة خاصة في فرنسا التي استبدلت كلا من الحاكم العام دروي درلون (Drouet d'Erlon) بكلــوزال

---

1 - تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص95-96.

(Clauzel) (جويلية 1835) وحاكم وهران تريزيل بـــدارلونج (d'Arlange) وذلك قصد تهدئة الرأي العام وامتصاص غضب المعارضة الفرنسية[1].

ففي البرلمان أرجع الكثير من النواب سبب الهزيمة الفرنسية إلى عدم الكفاءة لحاكم الجزائر، فهذا تيار(Thiers) وصف هذه المعارك ضد الأمير: بأنها ليست استعمارا وليست احتلالا واسعا أو ضيقا ليست سلما أو حربـــا... ولكنـــها حربا سيئة الإدارة[2].

وفور وصول كلوزال إلى وهران في نوفمبر 1835 جهز حملة قوتها 12000 محارب، حيث وجد بعض القبائل مستعدة للتعامل مع فرنســا فــتمكن مــن الدخول إلى معسكر يوم 6 ديسمبر 1835 ثم تلمسان أوائل جــانفي 1836 بمساعدة بعض المشايخ وفي مقدمتهم مصطفى بن إسماعيل الذي كان على رأس الدوائر والزمالة. والواقع أن استئناف الحرب ضد الأمير ونقض معاهــدة دي ميشال إنما كان لضرورة اقتضتها مصلحة فرنسا. لأن من أهداف هذه الأخيرة منذ التوسع غربا تحقيق المزيد من السيطرة على قطاع الغرب من أجل ازدهــار تجارتها وتصريف منتوجاتها الصناعية عبر كل من أرزيو ومستغانم. ومنع الدول الأخرى وفي مقدمتها إنجلترا من التغلغل تجاريا في هذه المنطقة. إلا أن معاهــدة دي ميشال سمحت للأمير كي يتعامل تجاريا مع بعض الشــركات الإنجليزيــة

---

1 -للمزيد من المعلومات يراجع: يحي بوعزيز، ثورات الجزائر ط.1، البعث قسنطينة 1980، ص.20.

2 - تشرشل، ص.98.

واليهودية حيث تمكن بواسطتها من تصدير منتوجات كثيرة مثل الحبوب والصوف والزيوت والجلود مقابل الحصول على مواد كالسكر والقهوة [1].

زيادة على ذلك فقد خولت المعاهدة للأمير أن يمد نفوذه إلى إقليم كل من التيطري والمدية ومليانة وبسكرة.

وقد نقضت فرنسا معاهدة دي ميشال وأعلنت الحرب على الأمير مدعية أن مسؤولية ذلك تقع على الأمير نفسه بحجة أنه تاجر مع إنجلترا وسمح لنفسه أن يمد نفوذه ليشمل قطاع المدية حين انتصر على الحاج موسى بن حسن (المدعو.أبي حمار) [2].

---

1 - للمزيد من المعلومات حول هذه القضايا يراجع: Kokenpot,p-p.1151-153 وكذلك: إسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر 1982، ص-ص. 52 -53.

2 - بمجرد أن وقع الأمير معاهدة دي ميشال ثارت قبائل كثير ضده، وقد قاد هذا المرابط الحاج موسى على الطريقة الشاذلية حربا على رأس قبائل أولاد نايل ضد الأمير بحجة أنه تصالح مع "الكفار". فطلب من الأمير مواصلة الجهاد والخضوع إليه. لكن الأمير رفض هذا بحكم أنه ملتزم بمعاهدة مع الفرنسيين من جهة، وأنه مبايع بصفة شرعية من جهة ثانية. وانتهى الصراع بينهما بانتصار الأمير وتعيين خليفته محمد البركاني على المدية. للمزيد من المعلومات يراجع: تحفة الزائر، ج.1، ص-ص. 144-146. وكذلك:
ESQUER(G.), Corresp. du Général Drouet, d'Erlon (1834-1835), Honoré Edouard, Paris 1926, p-p.3380-309, 406-409.

رابعا: معاهدة الدوائر والزمالة

ما أذكر به القراء هو أن- هذه نسخة من وثيقة المعاهدة المتضمنة للشـــروط المقررة بين تريزيل حاكم وهران وشيوخ دوائر الزمالة باللغة الفرنســـية. وإني بذلت جهدا كبيرا قصد العثور على نصها العربي لكنني لم أفلح. مع التنبيـــه إلى أنه توجد هذه النسخة في خزائن أرشيف وزارة الحربيـــة بفانســـان بـــاريس (A.M.G) صندوق H 235. مع التنبيه كذلك إلى أن أي تعليق في الهامش لم يرد في نص هذه الوثيقة.

وأن الدارس لهذه "المعاهدة" يمكن أن يصفها بـــ "عهـــد ولاء" للســـلطة الفرنسية لعدم توفر الشروط القانونية للمعاهدات، من تلك الشروط يجـــب أن تكون معاهدة بين الند والند، أي أن أحد أطرافها ليس شخصا دوليا (والمتمثل في القبائل) خلاف ما حدث في معاهدة الـــداي حســـين- ودي بورمـــون. ومعاهدتي دي ميشال والتافنة. وأيضا أن شيوخ الدوائر والزمالة لم تكن لهـــم سلطة شرعية على المنطقة. ثم أن مواد هذه المعاهـــدة لا تخـــدم إلا المصـــلحة الفرنسية فقط، وكأن هدف شيوخ الدوائر والزمالة كان الحصول على الحماية من طرف الفرنسيين ليس أكثر.

وهذا نص الوثيقة المترجم لمعاهدة 16 جوان 1835 المتضـــمنة للشـــروط المقررة يوم 16 جوان 1835 بين الجنرال تريزيل المفوض من قبل الحاكم العام وشيوخ الدوائر والزمالة بمخيم سيق[1].

---

1 - أشير إليها في مرجع تشرشل السابق الذكر بمسرغين. ص. 95.

المادة الأولى: تعترف هذه القبائل بنفوذ ملك فرنسا وتعلن لجوءها وخضوعها لسلطته.

المادة الثانية: بإرادة منها تخضع (هذه القبائل) لأوامر القادة المسلمين الذين سيعمل على تعيينهم الحاكم العام.

المادة الثالثة: تدفع هذه القبائل نفس الضريبة السنوية التي كانت ملتزمة بدفعها لبايات وهران السابقين.

المادة الرابعة: يستقبل الفرنسيون دون مضايقة في أوساط القبائل العربية مثلما يستقبل العرب في الأماكن التي هي تحت النفوذ الفرنسي.

المادة الخامسة: تكون تجارة الخيول (الأحصنة) والمنتجات حرة من قبل كل قبيلة تعلن عن رغبتها في الولاء للسلطة الفرنسية. على ألا تشحن البضائع الموجهة للتصدير إلا من الموانئ التي يخصصها الحاكم العام الفرنسي[1].

المادة السادسة: إن تجارة الأسلحة والذخيرة الحربية لا يمكن أن تتم إلا بواسطة وإشراف السلطات الفرنسية.

المادة السابعة: على هذه القبائل أن تشكل وحدات عسكرية عادية من الخيالة/الفرسان متى تطلبت الظروف إلى ذلك. وهذا بناء على أوامر الحاكم لمقاطعة وهران أثناء كل حملة عسكرية توجه بإفريقيا (الجزائر).

---

1 - اشترطت السلطة الفرنسية هذا حتى تتمكن من مراقبة البضائع وحتى تتقاضى رسوما. ولكي تحاصر نفوذ الأمير عبد القادر.

المادة الثامنة: أثناء مدة هذه الحملات العسكرية يتلقى الفرسان المسلحون بالبنادق مرتبا وقدره فرنكان لليوم الواحد. ويتلقى المشاة المسلحون بالبنادق فرنكا واحدا. ويحق لهؤلاء جميعا التزود بخمس خراطيش من الذخيرة الحربية، على أن يزودوا بإضافة عشرة خراطيش من ثكناتنا (الفرنسية). على أن يتم تعويض القبائل الموالية للسلطة الفرنسية قيمة الخيول التي قتلت في المعارك. وفي حالة ما إذا تلقت هذه الوحدات العسكرية التموين من الخزائن الفرنسية فانه لا يدفع لها إلا مبلغ وقدره خمسون سنتيم في اليوم.

المادة التاسعة: ليس من حق هذه القبائل الموالية إعلان الحرب على القبائل المجاورة لها إلا في حالة حصول اعتداء من هذه الأخيرة عليها. وفي هذه الحالة يستلزم إعلام حاكم المقاطعة فورا قصد نجدتها وحمايتها.

المادة العاشرة: عند عبور وحدات من الجيش الفرنسي بالأراضي العربية يمكن لهم شراء كل ما يحتاجونه من أكل وخيول بقيمة الأسعار العادية عن رضاء وطواعية.

المادة الحادية عشرة: كل القضايا بين العرب داخل قبيلة ما يكون البث فيها من صلاحيات القادة العرب أو القضاة. أما القضايا التي تحدث بين قبيلة وأخرى يكون الفصل فيها من اختصاصات قاضي وهران.

المادة الثانية عشرة: أي قائد يختار من كل قبيلة عليه أن يسكن برفقة أفراد أسرته في مدينة وهران[1].

الخلاصة:

مما تقدم يمكن أن نستخلص جملة من النتائج منها أن عملية جمع المادة الخبرية ضرورية في الوقت الحاضر وأن رجال السلطة الفرنسية عقدوا العزم على تحقيق أهدافهم بدءا باحتلال الجزائر العاصمة وجناحيها الشرقي والغربي. ففي قطاع الغرب الجزائري كان سكان الريف يشكلون قاعدة الهرم الاجتماعي ومن ثم كانوا يشكلون القوة في الناحية، هذه القوة التي كانت قائمة أساسا على قوة رجال الدين المرابطين ورجال السيف الأجواد، وقد التزمت كلها في البداية الدفاع عن "الوطن" ضد أجنبي هددها من الخارج إلا أن رجال السلطة الفرنسية تفطنوا إلى وسيلة فرقوا بها الصفوف الجزائرية، وكانت من ضمن تلك الوسائل معاهدة الدوائر الزمالة التي كانت تخدم المصالح الفرنسية بالدرجة الأولى، خاصة لما أصبحت تلك القبائل قوة في الصف الفرنسي ضد الأمير عبد القادر، بتجنيدها لفرق من خيالة عسكرية تدعم الحملات العسكرية وبتبادلها التجاري مع رجال الاحتلال.

---

1 - هذه المادة خطورتها، خاصة لما وضعت قادة القبائل تحت الرقابة كرهائن في مدينة وهران.

المصادر والمراجع:

1. محمد بن عبد القادر (الأمير)، تحفة الزائر، ج1، المطبعة التجارية، الإسكندرية 1903.
2. تشرشل، ش، هـ، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبي القاسم سعد الله ش، و، ن، ت، الدار التونسية للنشر، الجزائر / تونس، 1974.
3. ناصر الدين سعيدوني،

- دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- ، "دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايلك في الجزائر "، الأصالة، عدد 32 وزارة الثقافة الجزائر 1976. ص-ص. 46-63.

4. يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب، تونس 1983
5. " "، ثورات الجزائر، ط1. البعث، قسنطينة.
6. فشر، أ. تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ترجمة أحمد نجيب هشام ووديع الضبع، ط5 دار المعارف المصرية (س؟).
7. إسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية عهد الأمير عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982.
8. التميمي عبد الجليل "مغامرة الحماية التونسية على وهران 1831"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 5. تونس جانفي 1976.ص-ص.5-19.
9. KOKENPOT (Ch).. Traité Desmichels. Ernest Leroux. Paris 1924.
10. HAMDAN Khodja. Le miroir. Goetschy, Paris 1833.
11. Desmichels, Oran sous le commandement du Général Desmichels, Anselin, Paris 1835.
12. Moniteur algérien. N° 44 du 24 novembre 1832.

13. Papiers Duvivier. Note sur les dernières opérations de l'Emir Abdelkader. (1834 - 1835) A.M.G., H 32.

14. YACONO. (X.). » Peut on évaluer la population de l'Algérie vers 1830 «. in, Revue africaine. 1954.p-p.277-307.

15. BERNARD Augustin, L'Algérie. T. II. Plon. 1930.

16. ESQUER. (G.). Correspondance du Général Drouet d'Erlon 1834 - 1835. Honoré D., Paris 1926

Copie du Traité du 16 juin 1835.

مقطع من معاهدة الدوائر والزمالة

من خصوصيات الفكر
في العالم العربي[1]

1 -نشر هدا المقال في مجلة المعالم، الصادرة عن جمعية التاريخ والمعالم الأثرية العدد 5، بقالمة، الجزائر 1990، ص-ص. 21-39

نتناول هذا الموضوع من خلال النقاط الرئيسة الآتية:

1- التمهيد

2 - مستوى الوعي في أوروبا

3 - مستويات فكرية في المغرب الأقصى:

4-اختبار المرحلة أو الصدام مع الغرب

5-مواقف فكرية تونسية

5-1-خير الدين باشا

6-مساهمات فكرية جزائرية

1 - التمهيد

من القضايا التي تستهوي المفكرين هي التقاطع والالتقاء في مجال الفكر بين الشعوب. وحول هذه الفكرة يمكن القول إن ما جرى من فكر على الساحة في المشرق كان يختلف عما جرى في المغرب والجزائر.

وسيكون حديثي باختصار لأن هذا الموضوع واسع وعميق، فأقول كانت مواصفات الفكر / الوعي في بلاد المشرق ترتكز على أساسين هما ما وصف بالفكر السلفي وما سمي بالفكر الليبرالي. ونعني بالفكر هنا الشيء ذاته الذي يدور حوله التفكير، أي الاستعداد العقلي الذي يساعد على التأمل والمحاكمة للتمييز قصد التحليل والتركيب.

والمقصود بالفكر السلفي هو الفكر القائم أساسا على النص: القرآن الكريم والحديث الشريف. والهادف إلى إعادة المجتمع الإسلامي إلى صفائه الأول.

والفكر الصوفي أو المتصوف هو الفكر المتعلق أساسا بقضايا ميتا فيزيقية حول القطبية والإشراق والوجد والوجود (وحدة الوجود) واللاهوت والناسوت، وهو فكر هادف إلى تغييب الذات عن الوجود في الوجود وهو فكر متناقض في جوانب منه مع الفكر السلفي.

وتعني الليبرالية النزعة الفكرية (النظرية والتطبيقية (الداعية إلى ضرورة حماية الفرد/ الإنسان لحريته في مختلف المجالات، جاعلة منه الفرد (الخالق) لا المخلوق، غير العاملة في النهاية من أجل تطبيق العدالة الاجتماعية كمساواة بين الشعوب، ومن أكبر أهدافها التنازع من أجل البقاء، أي أن الفرد في النهاية وحدة قياس لكل شيء.

يمكن القول إن نواة الفكر في بلادنا العربية التي تتوزع جغرافيا في المشرق كانت محل الالتقاء بين الفكر السلفي والمتصوف بل المستوصف (المتطفل على التصوف والفكر "الليبرالي"). ولعل هذا ما أدى إلى نتيجة منطقية وهي أن مساهمات الفكر بالمشرق كانت أكثر عمقا فيما يسمى بالحداثة/ المعاصرة خلاف ما كان عليه الأمر في بلاد المغرب الذي كانت مساهماته الفكرية مشدودة أساسا لمجال الأصالة / التراث والموروث. ولهذا مرجع حسب تقديرنا يتمثل في:

1. أن الرواسب التي عرفها المشرق منذ فترة ما قبل الفتح الإسلامي تختلف عن التي عرفها المغرب. لأن المشرق عرف تكوينا اجتماعيا واقتصاديا متميزا

خاصة في ذلك الذي يسمى بأسلوب الإنتاج الآسيوي المائي الذي لم يسبق وأن عرفت بلاد المغرب مثل هذا اللون. مع العلم أن أسلوب الإنتاج الآسيوي يكون فيه التطور قائما على ملكية الدولة خارج الملكية الخاصة، وهو يختلف عما عاشه المغرب من حياة مؤطرة رأسا في أنظمة قبلية.

2. صدام المشرق بالغرب كان أسبق وأقوى من صدام المغرب وذلك خلال الحروب الصليبية وهجمة نابليون بونابرت بجانب وجود طوائف دينية (درزية ومارونية وقبطية) كل ذلك ولد محاورات سياسية واحتكاكات ثقافية وفكرية في المجتمع المشرقي. علاوة على ما كان كامنا من رغبة ذاتية لدى المفكرين العرب في تأسيس أنظمة حكم متطورة للتخلص من الهيمنة التركية-العثمانية والأجنبية.

3. وجود طوائف دينية وسياسية في المشرق متناحرة وعدم وجودها في بلاد المغرب.

4. طبيعة النظام، إذ أن الوجود العثماني في المشرق كان يختلف عما كان عليه في المغرب. كل هذه العوامل بل الفروقات / التقاطع ولدت نتيجة هامة حسب تقديري. بل نتيجتين: - الأولى: تزامن الصراع بين العروبة كقومية ومن ثم كأيديولوجية والإسلام كعقيدة. وتطور هذا الصراع في بلاد المشرق على الساحة السياسية والفكرية خاصة لما شخص وحصر المشارقة الإسلام في الخلافة العثمانية ومن ثم كانت النتيجة الثانية والمتمثلة في: أن الساحة الفكرية كانت تنادي في المشرق بضرورة الالتزام أكثر بالعروبة، وبالتالي بتحديد الفكر القائم على المعاصرة أولا. أي، الدعوة إلى العلمانية،

في حين كان المجال في بلاد المغرب مفتوحا للإسلام، وبالتالي للأصالة القائمة على الإصلاح بالدين الإسلامي الأمر الذي أدى إلى ظهور اللائكية أي ضرورة فصل الدين عن الدولة السياسية في بلاد المشرق لا في بلاد المغرب.

لا يعني هذا وأن مستوى الفكر" الليبرالي" بالمشرق كان قد ضرب إطنابه إلى درجة يمكن القول إن الحداثة بلغت مستوى العمق، لأن أحداثه حسب تقديري لم تصل الدرجة المؤثرة إلا بعد دخول الرأسمالية عن طريق جنينها الاستعمار. وسبب ذلك في رأيي يعود إلى التعارض المزمن بين السلطة وعامة والمجتمع، إذ نتجت عن هذا التعارض الذي استمر خلال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر فعالية ضعف في مختلف المستويات الإدارية الحكومية، والاقتصادية وحتى في بنيات المجتمع نفسه. فانعكس هذا الضعف البنيوي على مستويات الفكر/ الوعي فانحنى هذا المستوى إلى درجة متدنية ونتج عنه تحول الاهتمام الفكري من القضايا الأساسية إلى الأمور الثانوية الهامشية. ومن المؤثرات الدالة على هذا غلق باب الاجتهاد أو على الأقل عدم الإقبال عليه والتشجيع إليه. الأمر الذي أدى إلى حتمية وهي ميل الفكر إلى السلفية اللاعقلية على حساب الفكر التجديدي. والتزام هذا الأخير الاجترار والتغني بلغة المناقب على حساب الإبداع. ومن ثم نزل المشرق إلى حظيرة الانحطاط خلال القرن التاسع عشر عن جدارة واستحقاق، ولم تفلح فيه المحاولات النهضوية التي قام بها رجال كانوا أصحاب قضايا؛ لأن محاولاتهم جاءت

تنظيرية وإقليمية أكثر مما جاءت شيئا آخر. من تلك المحاولات النهضوية كانت في:

مصر عهد محمد علي عن طريق الإرساليات فهي نهضة علمية وإدارية وعسكرية.

الشام وهي فقهية قامت على أكتاف أسر مشهورة أمثال: آل حمزة المرادي وعابدين والغازي والحلبي.

العراق وهي أدبية قامت على أكتاف كل من محمود شهاب الدين الألوسي والفروقي.

نجد وهي سلفية إصلاحية تمثلت في الحركة الوهابية.

تركيا وهي إصلاحية إدارية دعا إليها مفكرون أمثال مدحت باشا الذي عاصر حكم السلاطين محمود عبد المجيد وعبد العزيز وعبد الحميد وكان من أنصار الدستور الذي يعني الإصلاح المالي والسياسي الهادف إلى إقامة مشاريع إنشائية مثل خطوط السكك الحديدية.

السودان وكانت نهضة إصلاحية قائمة على سلفية المهدية و لم تعرف التغير إلا بعد الهجوم الإنجليزي أواخر القرن 19.

فيكون المجتمع العربي الإسلامي قد دخل مرحلة جديدة بحكم عاملين: الأول يعود إلى اهتمام عامة المجتمع الإسلامي بالقضايا الثانوية الهامشية دون الالتزام بالقضايا الأساسية الرئيسية. والثاني إلى ضعف السلطة الحاكمة خلال هذا التاريخ إذ كانت الإمبراطورية العثمانية تعيش مرحلة الاحتضار في معظم أجهزتها الحكومية الإدارية والعسكرية سواء على الصعيد المركزي أم الإقليمي

ومن ثم صار اسم "الرجل المريض" يليق بها فاستفحل مرضها واتسع الفكر الليبرالي الذي عمل على سلخ دويلات في البلقان والبغدان (رومانيا حاليا واليونان) عن الأمبراطورية العثمانية.

تاريخيا من الصعب أن نحمل الدولة العثمانية المسؤولية الكاملة في هذا الانحطاط لأن من المهام الأساسية المنوطة بالسلطة الحاكمة حسب مفهوم ذلك العهد هي المحافظة على الأمن سواء داخل عاصمتها أم ولاياتها. وجباية الضرائب وحماية الحدود ولعل هذا ما دفع بعض الدارسين السياسيين إلى إطلاق اسم "الدولة الحارسة" على الدولة العثمانية. وكانت ثقة الرعية فيها تتوقف على القيام بهذه المهام خلاف ما هو عليه الأمر في عصرنا هذا الذي تطورت فيه مهام الدولة لتشمل خدمات اجتماعية أوسع بجانب فرض الأمن.

من جهة أخرى فقد فرض على العالم العربي الإسلامي الرسمي والشعبي أن يكون في موقع الدفاع بعد أن سبق له وأن حقق انتصارات عسكرية وفكرية مؤقتة، لكنه لم يحقق انتصارات أخرى موازية وهو ما يفسر في رأينا انهزامه السياسي بسرعة أمام موجة الاستعمار الأولى.

بينما حدث العكس لدى بعض الدول الأوروبية التي سبق لها وأن انتصرت عسكريا كما انتصرت في مجالات أخرى من ذلك فقد أدت الحروب الصليبية إلى خروج الإقطاع الأوروبي من علاقات إنتاج محدودة إلى علاقات إنتاج أخرى أكثر تطورا خاصة بعد ظهور المدن التجارية وهذا ما يمكن أن يؤكد حقيقة وهي: قد يتحول الانتصار العسكري إلى عامل الضعف. وأن مثل هذه الانتصارات إذا أريد لها الدوام لا بد أن يواكبها تطور في مستويات الوعي.

2- مستوى الوعي في أوروبا :

نتحدث عن هذا الجانب باختصار لتقريب الفهم حول الاختلاف الذي ساد من حيث مستوى الفكر/ الوعي في كل من أوروبا والعالم العربي الإسلامي. إذ انطلق الفكر في أوروبا خلال القرنين 18و 19 من الفن والعلم إلى السياسة والصناعة ثم إلى المجتمع فالاستعمار.

بينما انطلق الفكر في البلاد العربية من الدين إلى المجتمع والسياسة ثم إلى الصناعة فالصمود أمام هذا الاستعمار.

بناء على هذا يكون الفكر في أوروبا قد انطلق من قاعدة فنية علمية فعرف تطورات مختلفة مخالفة شملت مجالات متعددة من الحياة، من ذلك ما حصل في المجال الأدبي (الحديث هنا على سبيل المثال لا الحصر) حيث اتخذ فيه الفكر من الحرية والإبداع والتذوق الجمالي ميدانا خصبا. ولما كانت اهتمامات التيار الأدبي بأوروبا في مطلع القرن الثامن عشر واضحة أكثر في الجانب العاطفي لكنه لم يرق إلى مستوى الإيديولوجيات على الرغم مما عرفته أوروبا من أحداث كالثورات في الحياة السياسية والاجتماعية، ومرد ذلك إلى أن الحياة اليومية للخاصة والعامة من الناس كانت مرتبطة بما كان آنيا، أي / أنها كانت تستلهم كل ما كان معيشيا وأن مستوى الإدراك لتلك الخاصة والعامة لم يستوعب تلك التحولات وبالتالي لم يتأت له التحكم فيها وتوجيهها.

بحكم طبيعة الأحداث المتناقضة بين رواسبها الممتدة في أعماق الماضي وبين ما كان يوحي بحتمية التغير بحكم ذلك عرفت الساحة الأدبية الفكرية في أوروبا بداية القرن 19 إفرازات يمكن حصرها حسب التقدير في تيارات ثلاثة:

الأول: تزعمته فئة توصف (بالبرجوازية الواعية) التي تشبثت بقيم القرنين السابع عشر والثامن عشر، من جهة و"بقوة" النظام المنهار من جهة أخرى. فهي بحق تعد الفئة المحافظة على تيار الكلاسيكية.

الثاني: التزم أصحاب هذا التيار الموقف المتأرجح بين الدعوة إلى الكلاسيكية وما كانت تدعو إليه وتطبقه فئة التيار الثالث المسمى في الأدب الفرنسي بالتيار الثوري الشاب. ومن الشعارات التي دأب هذا التيار الثوري يطبقها خلال القرن 19 عشر هي التغيير الجذري للواقع القائم سواء في الذهنيات أم الماثل في البناءات الإدارية والحكومية فحدث تحول على حساب قيم ومميزات القرن الثامن عشر التي كانت قائمة على الفلسفة ذات الهدف النظري الرئيسي وهو الحرية (حرية الفرد) الذي جاء بعد القرن 18 عشر وهو قرن الفلسفة لاهتمامه أساسا بالقضايا الميتافيزيقية مثل أصل الكائنات بنوعيها الجامد والمتحرك. يعني هذا أن مفكر القرن الثامن عشر حاول إخضاع كل شيء حتى الدين للفلسفة بعد أن كانت هذه الأخيرة قد أخضعت للدين خلال قرون سابقة.

وبناء عليه يمكن القول إن مفكري القرن 18 أمثال روسو وفولتار وديدرو وبيفون وبومارشيه قد دعوا إلى حرية الفرد مكتفين بدعوة السلطة إلى القيام بإصلاحات في مجالات محدودة وفي مقدمتها المجال المالي. ونلمس هذه الدعوة بشكل أكثر وضوحا في الفكر الفرنسي والسبب يعود إلى ضعف السلطة

الحاكمة في الداخل والخارج بفرنسا إذ الهزمت الجيوش الفرنسية خلال القــرن 15 أمام قوات فردريك الثاني. وأمام إنجلترا في حروب السبع ســنوات ومــع ذلك يبقى نقد فكر القرن 18 في مجال نظري خلاف فكر القــرن 19 الــذي عمل على تحرير الفرد الأوروبي من قيود النظام العام. وحتى من بعض القيــود التي فرضها العرف. فكانت دعوة التجديد المستمر دون الالتزام بالقيم الموروثة التي هي أخلاقية وفلسفية ودينية. إن ثورية مفكر القــرن 19 متولــدة عــن إفرازات لمراحل تاريخية كان للحياة اليومية مفعول كبير في أحداثها، مــثلا في فرنسا لعبت الأندية الفكرية الدور الأساسي في تشكيل حركة فكريــة أدبيــة ثورية تحاورت بعمق مع تلك الأحداث المختلفة سواء التي كانت في فرنســا أم خارج حدودها. وحتى تكون الصورة أكثر وضوحا للقارئ نعــرض بعــض الأندية الفكرية التي كانت محل استقطاب وشحذ للمفكرين منها في بــاريس وحدها كان:

- نادي أنتيراسول المؤسس عام 1720 بساحة فاندوم. إذ كانت القضــايا الأساسية للحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية محاور لمناظرات بين أعضاء هذا النادي أمثال منتسكيو إلى درجة أن تدخلت السلطة وأغلقت أبوابه خوفا مــن زيادة درجة الوعي السياسي واستفحال قوة المعارضة.

- نادي مان (1699-1753) المسمى على ابنة أحد النبلاء الكبــار الــتي فتحت هذا النادي لاستقبال كبار الأدباء والمفكرين أمثال فانتــال ولامــوت ولافار.

- نادي لامركيز دي لامبار (1710-1733) الموسس بشارع رشــيليو. كان من رواده منتسكيو ولاموت وماريفو.

- بجانب الأندية الأخرى والمقاهي التي كانت ملتقى للحوار الفكري الحــر مثل نادي تانسان.

- نادي دي دافان (1740-1780) حيث كان يتردد على هــذا كبــار الوجوه اللامعة في الفكر أمثال منتسكيو ومنتمال وماريفو.

- نادي الآنسة لاسبيناس (1762-1776) كان من الرواد الدائمين علــى هذا النادي كبار الأدباء الاقتصاديين أمثال تيرقو الذي تولى وزارة المالية قبيــل قيام الثورة الفرنسية.

- ومن الأندية الثورية المميزة نادي دي ابناي ونيكروة دولياخ...الخ.

يمكن استخلاص حقيقة وهي إذا كان قرن الفلسفة قد اهتم بشــكل عــام بالقضايا الميتافيزيقية وبتوجيه النقد للديانة المسيحية فإن أدباء ومفكري هــذه الأندية اهتموا كثيرا بخصوصيات الحياة اليومية في جوانبها المتعددة، من ذلك أن فولتار انتقد بقوة مهازل الحياة الاجتماعية وعلى رأسها العدالة الــتي يســيرها رجال غير أكْفاء ونلمس هذا النقد في الإبداعات الكثيرة مثل (رسائل فلسفية) (1734) زائير (1732) قرن لويس 14 (1751) وكنديد (1759). وأعمال ديدرو لتأليفه: الموسوعة. وجاك الفتاليست (1773). وكانت أعماله الفكرية هي نقد للمعتقدات السائدة. ويعد ديدرو في رأينا المفكر الذي سبق مــاركس في معالجة المادية الجدلية بعمق، لكن أفكاره لم تجد من يمثلها على أرض الواقع

بالشكل الذي وجده ماركس. وكذلك روسو في أعماله العقد الاجتماعي (1762).

ومن الغرابة بمكان أن فرنسا لم تعرف شيئا ذا أهمية في أحد الألوان الأدبية وهو نظم الشعر خلال النصف الأول من القرن 18. ما سبب ذلك؟ أترك هذا الطرح للإجابة عليه من طرف المتهمين.

3 - مستويات فكرية في المغرب الأقصى:

بعد هذا الحديث المختصر عما كان في كل من المشرق وأوروبا من حيث المستويات الفكرية انتقل للحديث عما جرى في بلاد المغرب العربي الكبير مبتدئاً بالمغرب الأقصى إذ كان فيه المجتمع خلال القرن الثامن عشر يعيش أوضاعا غير متجانسة من حيث تشكيلاته الاجتماعية المتكونة من مجتمع الأرياف ومجتمع المدن، كان مجتمع الأرياف يؤسس قاعدة الهرم الاجتماعي الكبير يتشبث بالقانون العرفي القائم على حيازة الأرض وعصبية الدم والولاء بدرجة أقوى خلاف الحواضر الذين كانوا أكثر ارتباطا وممارسة للقانون الشرعي وللحرف. يصف كثير من الدارسين المجتمع المغربي بالثنائيات الآتية:

السهل - الجبل / العرب - البربر / العرف - الشرع / المخزن (السلطة) - السيبة. من المعروف أن العثمانيين لم يتمكنوا من إحداث مواطن نفوذ في بلاد المغرب الأقصى، ومن ثم عاش هذا الأخير فترة تاريخية تختلف عن التي عاشتها كل من الجزائر وتونس أو عن التي عاشتها بلاد المشرق. ولعل هذا من العوامل التي لم تجعل المغرب مثل الجزائر فتكون النتيجة الآتية: أن مستوى الفكر في غالبه كان قائما على الدين. مرتكزا على محورين أساسيين هما السلفية والطرقية

المتصوفة. والملاحظ أن الوهابية وهي مرحلة تطبيقية لأفكار ابن تيمية قد تسربت إلى بلاد المغرب الأقصى بحيث كان لها من الصدى والإقبال ما عمل على توجيه الفكر خلال فترة غير قليلة من تاريخ المغرب الحديث. فالمعروف عن دور الوهابية مثلما هو الحال عند السنوسية أنه كان ذا شقين متميزين.

الأول: ديني وإصلاحي واجتماعي لازم محاربة البدع والإغراق أحيانا في الخرافة والشعوذة التي كان بعض الطرقيين يشجعون على استفحالها ومن ثم يمكن القول بأنها طرق مستصوفة فضولية لأنها طرق متصوفة.

الثاني: سياسي وإصلاحي أساسه «المقاومة» ضد كل ما هو/ خارجي تحديثي سواء الآتي من لدن الخلافة العثمانية أم من المحاولات الأوروبية الهادفة إلى فتح الأسواق الخارجية والسيطرة عليها، لمضاعفة نفوذها، ومنها سوق المغرب الأقصى.

وفي تقديري هذا ما جعل رجال الحكم بالمغرب يعاضدون الوهابية لا لذاتها وإنما لجعلها كوسيلة القصد منها تحقيق مآرب وفي مقدمتها:

- محاربة "الخلافة" العثمانية في أحد قلاعها القوية الرابطة في الجزائر.
- جعل الوهابية القشرة الصلبة لجسم المغرب حتى لا تتمكن القوى الأوروبية من الدخول بسهولة.
- التقليل من نفوذ الطرق الصوفية التي جعلت من الخرافة والشعوذة ملاذا لعامة السكان. كل هذه العوامل جعلت سلاطين المغرب يأخذون بسلفية الوهابية، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد بن عبد الله (1790) والسلطان سليمان (1792) ومن ثم صارت تعاليم الوهابية

الوافدة من الحجاز المظهر الرسمي والشعبي في الخطاب المغربي. ولا يعني هذا أن الحكم بالمغرب قاطع بشكل نهائي الطرق الصوفية الأخرى بتوظيفه الوهابية كسلاح واق، بل أن بعض السلاطين استمالوا إليهم شيوخا من الطريقة التيجانية المتوطنة في الجزائر. وكذا الدرقاوية المنتشرة في الغرب الجزائري. وأن مردّ ذلك إلى ضرورة سياسية لأنه لم يكن خاف على رجال الحكم بالمغرب ما كان للطريقتين من نفوذ واسع على عدد ليس بقليل من عامة السكان سواء في الجزائر أم في المغرب لهذا فالضرورة السياسية اقتضت استمالة قلوب شيوخ الطريقتين التي تعني بالضرورة استمالة الأتباع والمريدين من مختلف المستويات والجهات الاجتماعية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن كسب التيجانية إلى الصف المغربي يعني إحداث حصون أمامية للاحتماء من خطر الهاجس العثماني المرابط في الجزائر لأن التيجانية وعاصمتها عين ماضي كانت من الجبهات القوية ضد النظام العثماني وكذا الشأن بالنسبة للدرقاوية التي لم يعمل حاكم المغرب على منح حظوته لشيوخها إلا بعد ثورتها على الحاكم العثماني.

اعتمادا على هذا يكون رجال الحكم بالمغرب الأقصى قد وازنوا بين سلفية الوهابية وصوفية كل من الدرقاوية التيجانية لا لذات هذه الحركات من جهة ولا لالتقاء مطروحات الوهابية مع التيجانية مثلا في نبذ الخرافات كزيارة الأضرحة من جهة ثانية وإنما عملوا على توظيفها وتشجيع فكرها على الرغم مما يتضمن من مفارقات لتكون درعا واقيا لمواجهة أي خطر خارجي. وأيضا لكسب العامة الذين يقدمون فروض الولاء لهذه الطرق معتصمين بها متعصبين

لها. وعليه يكون الحكم على هذا التوظيف أنه كان لغرض سياسي محدود دون أن يكون متجذرا فقط فهو كان لخدمة المرحلة. الأمر الذي أدى إلى حـــدوث اهتزازات عندما حلت مرحلة جديدة وأعني بها مرحلة الصدام مـــع الغـــرب المباشر.

4- اختبار المرحلة أو الصدام مع الغرب:

بمجرد أن تم احتلال الجزائر (1830) تفطن رجال الحكـــم في المغـــرب إلى ضرورة تقوية الصف لمواجهة خطر أوروبي قريب. وسرعان ما تبين الضـــعف أكثر لرجال الحكم خاصة بعد هزيمة قواتهم بسرعة أمام الجـــيش الفرنســـي في معركة إيسلي (1844) عهد السلطان ابن عبد الرحمان (1850) وأثبتت هذه الهزيمة أن تلك الأسس التي بنيت على سياسة الموازنة بين الســـلفية الوهابيـــة والطرقية كانت هشة بالفعل، كانت هشة بحكم أن تلك المحاولات كانت ذات مؤثرات أفقية ومرحلية دون أن يكون لها ضمان منعش، بحيث كانت بعيدة عن بث وتعميم الوعي في أوساط العامة الواسعة لأنها كانت تعمـــل في خطـــاب عاطفي ضيق ومصلحي غير مثمن بقناعة واسعة. ولعل هذه التجربة هي الـــتي ولدت فيما بعد حركة إصلاحية سلفية عقلية يمكن وصـــفها عـــن جـــدارة واستحقاق بالسلفية النهضوية "الوطنية" المغربية التي سخرت فكرهـــا لمحاربـــة الاستعمار وتطوير الذهنية، وهذا موضوع آخر يمكن الحديث عنه في مستويات الفكر أواخر القرن 19 وبداية القرن 20.

كانت هزيمة إيسلي منبها لكل فئات المجتمع المغربي إلى الخطـــر الناســـف. فظهرت محاولات التعزيز حيث ارتـــأت لرجـــال الحكـــم ضـــرورة القيـــام

بإصلاحات، أي، التحديث في الأجهزة المركزية كالإدارة والجيش وبعض المواقف الاقتصادية. في حين تبين للعامة من سكان المغرب بزعامة النخبة منهم أنه حان وقت القيام بإصلاحات تشمل الحياة الاجتماعية أساسا مرورا بتطبيق العدالة الاجتماعية وعلى رأسها الشورى.

هكذا إذن كانت النظرة الإصلاحية من طرف البناء السياسي الأفقي الذي عمل على التحديث في الإدارة والجيش كتأسيس مدرسة عسكرية ومعمل للسكر ومطبعة وإرسال بعثات إلى أوروبا. وكأن العملية هنا تقليد للبعثات التي تمت عهد بطرس الكبير (1725) حين أراد النهوض بروسيا أو محمد علي والي مصر.

لم يحقق هذا النوع من الإصلاح بالمغرب الشيء الكثير لأنه لم يكن في مستوى متطلبات المرحلة، زيادة على أنه لم يكن مثمنا بقناعة أغلب الفئات المشكلة من عامة السكان الذين لم يروا في هذا اللون من الإصلاح سوى الانتقال من المدرسة الإسلامية إلى الأحضان الغربية، بل وذهب ببعضهم الأمر إلى اعتبار أن تلك الهزيمة (إيسلي) إنما هي قدر الله كعقاب للمغاربة الذين خرجوا مبادئ الدين الإسلامي.

يكون مستوى الوعي في المغرب الأقصى بهذه الخصوصية في أواخر القرن 18 وخلال النصف الأول من القرن 19 مركزا حول الخطاب السفلي، هذه السفلية التي تستمر إلى تاريخ لاحق، ولكن في شكل آخر يمكن تمثل في السلفية العقلية ذات المنحى السياسي الوطني، بل التنظيري الذي عمل على تطوير الفكر وفهم القضايا الأساسية التي شغلت يومها البلاد من مشكلة الغزو

الأجنبي للمغرب بمختلف صوره. ومن ثم صار هذا الفكر القوة الفاعلة والمعبرة على مطامح الشرائح الاجتماعية المغربية في نطاق واسع خـلاف مـا تم مـع السلفية القديمة.

والسؤال الذي يجدر طرحه هو: إلى أي مدى كانت هذه المستويات الفكرية واعية للعوامل المحركة للحياة آنذاك؟ وطرح هذا السؤال مهم لأن علاقة الفكر بالواقع أساسية بل أن الواقع في معظم صوره فكر في حد ذاته ومن ثم يكـون الفكر جزءًا من الحياة الاجتماعية. وأفضّل أن تكون الإجابة على هذا السـؤال بعد الحديث عن مستويات الفكر في كل من تونس والجزائر تجنبا للتكـرار لأن مثل هذا السؤال سيطرح عند التطرق للحديث عن هذين البلدين.(مع الأسف لم ينشر جواب السؤال في نهاية هذا المقال في المجلة المذكورة).

5- مواقف فكرية تونسية:

تشير كثير من الوثائق والدراسات إلى أنه منذ أن تولي حمودة باشا الحكـم على رأس الأسرة الحسينية (1782) تغيرت أمور كثيرة سواء علـى الصـعيد الداخلي بتونس أم خارجها. خاصة فيما يتصل بعلاقتها مع أوروبا أو بجارتيها الجزائر وطرابلس.

على الصعيد الداخلي شهدت تونس محاولات تغيير مست قطاعات هامة من الولاية في ميدان السياسية الإدارية والاقتصادية والاجتماعية من تلك المحاولات تطبيق جملة من القرارات الحكومية في البلاد تمثلت إحداهما في وضـع الرجـل المناسب في المكان المناسب. لأن حمودة باشا سمح لكثير من خيرة أبناء البلاد أن يكونوا من أولئك الوزراء كان مصطفى خوجة صاحب الطابع الذي كان لـه

من الحزم ما أهله أن يكون على رأس الوزارة الأولى بل أن يكون الرجل الماسك لزمام الأمور في البلاد دون منازع، ومما يشهد لهذا الوزير من المواقف التي تدل على بعد نظره فيما تمليه عليه الطرق الدبلوماسية ومصلحة البلاد أنه تعامل مع قناصل الدول الأوروبية بموازنة ظرفية إذا لم يسمح لطرف أن يحظى بامتيازات أكثر من الطرف الآخر.

لم يدم طويلا هذا اللون من السياسة التي طبقها صاحب الطابع حيث مال في النهاية إلى الصف الفرنسي خاصة بعد قيامه بالزيارة إلى عاصمة الدولة العثمانية (1795) إذ تمكن قنصل فرنسا من إقناع صاحب الطابع بالتعاضد مع القوة الفرنسية لتحقق فرنسا من جهتها مكاسب وفي مقدمتها توسيع سوقها التجاري. منذ هذا التاريخ صار النفوذ الفرنسي في البلاد كبيرا لدرجة أن سياسة حمودة باشا وممن تولى الحكم بعده كانت كثيرة الاعتماد على التدخلات الأجنبية وفي مقدمتها فرنسا، ومن ثم لم تستثمر المحاولات الإصلاحية التي قام بها كل من محمود باشا (1814) حسين باي (1824-1835) مصطفى باي (1835-1837) أحمد باي (1837-1855) ومحمد باي (1855-1859).

تكون السلطة الفرنسية بهذه المواقف قد ضغطت على رجال الحكومة التونسية للقيام بتحديث البلاد وفقا لأهدافها البعيدة مستغلة ظروف تونس الممزقة، لهذا عقدت معاهدات كثيرة خلال فترات زمنية متعاقبة بين تونس وفرنسا. وكانت محتويات تلك المعاهدات تدل على هدف فرنسا الرامي إلى ربط تونس بفرنسا. حيث جعلت فرنسا من قضية الرعايا الأجانب في تونس

موضوعا مبررا للقيام بمثل هذه الضغوط. وكان موقف رجال الحكومة التونسية لصالح فرنسا؛ والمؤشرات الدالة على هذا كثيرة، منها وقوفهم بالصف الفرنسي أثناء احتلالها للجزائر.

يعني هذا أن مستوى الوعي الرسمي التونسي قد اقتنع بضرورة إدخال المعالم الحضارية الأوروبية /التحديث/ على أساس أنها هي الممـــر للتطـــور، ويمكـــن الاستدلال على هذا بعرض مستوى فكري لأحد رجالها وهو خير الدين باشا.

5-1- خير الدين باشا 1819-1889

أصله شركسي تربى وتعلم في بلاط الحكم التونسي؛ تولى مناصب هامة في الدولة كقيادة الجيش، والإدارة أسس مجلسا نيابيا. وتولى في اسطامبول أواخـــر حياته منصب رئيس الوزراء عهد السلطان عبد الحميد.

هل يمكن اعتبار المطروحات الفكرية التي جاءت في كتابه أقوم المســـالك في معرفة أحوال الممالك مماثلة بشكل مطابق للخطاب السياسي العـــربي خـــلال القرنين 18و 19؟ وهل كان ذلك الخطاب العربي الإسلامي ذاتيا نابعـــا مـــن إفرازات التطورات الداخلية للمجتمع العربي، أم هو شـــكل مـــن مـــؤثرات موضوعية ناتجة عن تدخلات غربية قصد القيام بالإصلاحات لتحديث الرقعـــة العربية بشكلها الرسمي والشعبي وجعلها السوق الكبير لفائض إنتاج الرأسمالية؟.

نميل إلى الاعتقاد أن مطروحات خير الدين باشا الفكرية تعدّ مـــن الوجـــوه الواضحة في الخطاب الفكري العربي الإسلامي الحديث لأنهـــا ذات محتويـــات ومثمنات عقائدية دينية راسخة في أصول الشريعة الإسلامية وفي نفس الوقـــت

تحمل طموحات التكيف مع الإصلاحات السياسية والاجتماعية التي كانت تنادي بها أوروبا. ومع ذلك يبقى الموصل النظري الأساسي في فكره غيبيا.

كان خير الدين أحد رجال السلطة الذين مارسوا مهامها على غاية من الدقة مقارنة بمن تولى الحكم في عصره. في الوقت الذي كانت فيه تونس تعيش ثلاثية، هي: التبعية للباب العالي، الضغوط الأجنبية، وفي مقدمتها الفرنسية. والرغبة والطموح في النهوض بالداخل الذي ضرب التخلف فيه إطنابه. في ظل هذه الثلاثية جاء فكر خير الدين معبرا بل شاهدا على واقع تاريخي. جاء كنتيجة حتمية لمحاولات وأبحاث غربية لتطويع تونس وكسبها لصف الرأسمالية الناهضة. ونلمس هذا بشكل واضح في كتابه **أقوم المسالك**. باعتماده على الدول الأخرى في أعماله التطبيقية ومن ثم يمكن اعتبار الخطاب العربي من هذا الجانب متأثرا بالغرب. وجاء أيضا كمنبع ذاتي حين عمل على الاحتفاظ بمبادئ الشريعة الإسلامية بحكم أن الموصل النظري لفكره غيبي مثلما سبق ذكره.

يكون خير الدين بهذا الموقف قد زاوج بين شيئين متناقضين نظريا هما العقلي "الليبرالي" والشرعي الديني. لأن الأمر عنده: لا نهضة دون قيام تنظيمات سياسية وإدارية ولا حرية دون تقييد للسلطة القائمة.

بناء على هذا يكون خير الدين من المساهمين في تطوير الفكر التغريبي في جزء من البلاد العربية الإسلامية فهو من الذين انبهروا بالتفوق الأوروبي في مجال الصناعة والحروب والعلوم والإدارة فكان من الذين سقطوا بفعل موقف

المحافظين الصادقيين والزيتونيين. وبفعل التناقض الكبير بين واقعه الرافض للتحديث ورغبته هو فيه.

ويمكن اعتبار فكر خير الدين باشا محاولة الإجابة على سؤال شغل بال المصلحين وهو: كيف نحافظ على مقوماتنا العربية الإسلامية وفي نفس الوقت نعمل على تطوير المجتمع العربي الإسلامي أسوة بالغرب؟

6- مساهمات فكرية جزائرية في قضايا حديثة:

من القضايا الحديثة التي شغلت بال المفكرين في البلاد العربية الإسلامية خلال القرنين 18 و19 قضايا أخلاقية إنسانية كتحرير العبيد والشعوب أي حرية الفرد. بجانب القضايا الاجتماعية المتمثلة في التخلف والإغراق في الخرافة والشعوذة. والقضايا السياسية مثل الاستعمار والكفاح والتحديث. والقضايا الفلسفية المتعلقة بباب الاجتهاد وبأفكار عصر التنوير.

والسؤال المطروح هو: ما هي المساهمات الجزائرية في مثل هذه القضايا؟ قبل التعرض لهذا نرى من الضرورة بمكان الإشارة إلى شيئين الأول اصطلاحي والثاني منهجي:

فالأول يتعلق بمصطلح التغريب والمعاصرة / الحداثة. في كثير من الأحيان لا يفرق الدارسون بين هذين المصطلحين باعتبار أن المعاصرة مطابقة للتغريب. بل وأن الغرب أساس المعاصرة لكن بعض الشعوب وجدت بها معاصرة وهي لا تنتمي إلى العالم الغربي، بهذا الخلط يكون أي تطور لأي شعب مرهونا بمؤثرات المعاصرة الغربية لكن الواقع يؤكد أن العوامل الداخلية للشعوب تساعد على التطور بتفاعلاتها مع العوامل الخارجية. فالتطور هنا هو ذات وموضوع.

الشيء الثاني أن المعاينة لتأمل ما في واقع ثقافي للمجتمع تتم من داخل المجتمع، والفكر جزء من هذا الواقع، له شيء من القدرة على التغيير في الحياة الاجتماعية، ومن ثم كان من مهام كل جهد فكري التأثير والتغيير بالدرجة الأولى لأن من المهام المنوطة بالجهد الفكري اليومي أن يعمل على إبراز وتوضيح هذه المهام وهنا تكون الصعوبة لأنه من الناحية المنهجية سنكون أمام تداخلات ثلاث في بنيات النص الفكري حين نحاول دراسته لمعرفة المساهمات الفكرية. وهذه التداخلات هي:

أولا: بنية النص / الأثر أي القوالب الفنية والشكلانية من حيث الدلالة الفكرية التي هي تعبير عن الحالة ذاتيا.

ثانيا: بنية صاحب النص - تكويناته وانتماءاته الفكرية والاجتماعية.

ثالثا: بنية الإطار الاجتماعي العام للنص - لأنه في ضوء هذا تتحدد وظيفة النص، أي الأطر الاجتماعية والسياسية ومدى تأثير هذا الواقع الاجتماعي والسياسي على النص وعلى صاحب النص معا.

ومن خلال هذه التداخلات بل القواسم المشتركة المتفاعلة في هذه البنيات تتأكد حقيقة وهي أن أي عمل فكري هو انتماء في أساسه يكون معبرا عن رغبة اجتماعية مشخصا لخصوصيات تاريخية سادت. ولا يمكن أن يكون عملا فنيا من أجل الفن فقط. ومن القضايا الفكرية الحديثة قضية الاجتهاد حيث وجدت محاولات فكرية جزائرية في هذا الباب وممن كانت لهم محاولات فكرية الشيخ عبد الكريم الفقون التأثر على "المتصوفين" الذي وصفهم بالزندقة والخروج عن الصواب لأن الإصلاح عنده هو المؤدي إلى معرفة الله. وهو اتباع

تعاليم القرآن الكريم والحديث الشريف وإجماع الأئمة، وليس ممارسة الواسطة بتقديس الشيوخ وإقامة الحضرة. فهم في نظره كالذباب يتطفلون على الـــدين. وكذلك الشيخ المغيلي الذي طرح أفكارا ذات قيمة عالية حول الحكم في كتابة الإمارة حيث قال: الإمارة خلافة من الله سبحانه ونيابة عن رسول الله (ص). الإمارة السياسية في ثوب رياسة. وكذلك الشيخ أحمد بن عمارة البوني الـــذي نادى بحرية الرأي وضرورة استعمال العقل، وعدم التحرج من مخالفة الأوائـــل وعدم التمسك بالتقليد لذاته. وانتقد السلف منتصرا في ذلك للفكرة القائلة: أن العلم منحة غير مقصورة على الأوائل. والشيخ ابن حمادوش الذي له باع كبير في علوم الطب والفلك والرياضيات. والمفتي محمود بن العنابي الذي قدم أفكارا قوية في الإصلاح السياسي والاجتماعي، حيث دعا العالم الإسلامي إلى ضرورة الإقبال على العلوم العقلية. وقد ألف كتابا بعنوان السعي المحمـــود في تـــأليف الجنود ذا علاقة بهذه المطروحات وأهداه إلى والي مصر محمد علي قصد إصلاح أحوال الإدارة والجيش. وتطول القائمة لو استعرضنا أسماء الذين ساهموا مـــن الجزائريين في إثراء مثل هذه القضايا الفكرية الحديثة وغيرها، ومنهم الأمير عبد القادر والحسن بن عزوز وأحمد بوضربة وحمدان خوجة.

فأحمد بوضربة مثلا وهو من الشخصيات الجزائرية التي لم تحظ بالدراسة على الرغم من الدور الكبير الذي لعبه. فهو من مواليد 1794 ومن أسرة جزائريـــة احترفت مهنة التجارة. وكان والده قد تولى وظيفة خزناجي.

كان أحمد بوضربة من العناصر الأولى التي أعلنت ميلها للســـلطة الفرنســـية وتولى عدة مناصب هامة منها: رئاسة المجلس البلدي ورئاسة لجنـــة مركزيـــة

حكومية (1830) ومع ذلك كان موضع شبهة في نظر رجال الاحتلال فنفي إلى باريس حيث لعب أدوارا سياسية على غاية من الخطورة.

يتضح من آثار أحمد بوضربة خاصة مذكراته التي سلمها للجنة الإفريقية (1833) أنه كان ممن انتقدوا السياسة الفرنسية في الجزائر بالقوة ومن الطامحين في تحديث الجزائر حيث وصف في مذكراته هذه تجاوزات رجال الاحتلال ومآسي الجزائريين، وطالب بإدماج الجزائريين في الحضارة الأوروبية بدءا بتأسيس نظام حكم فرنسي قوي في الجزائر على غرار الأنظمة الأوروبية القوية. وقدم مشروع عمل مقترحا فيه على السلطة الفرنسية أن تعمل بإحدى النقاط الخمس اختيارا كحل مناسب وهي:

1. الاستيلاء على الجزائر بالقوة والعنف.
2. التخلي عن البلاد والجلاء عنها نهائيا.
3. احتفاظ السلطة الفرنسية لبعض الموانئ فقط.
4. الاحتفاظ بالعاصمة ومدينتي عنابة ووهران مع تكوين حكومة أهلية تدفع الضرائب لفرنسا.
5. احتلال الجزائر كاملة وحكمها بالعدل والإنصاف.

وكان أحمد بوضربة من أنصار الحل الأخير شرط أن يكون على رأس هذه الحكومة مجلس استعماري يتشكل من: الوالي كرئيس بمساعدة 6 أعضاء وكاتب، بجانب مسلم وتكون مهمته استشارية. على أن يزود هذا المجلس بما يلزم من معلومات لفهم العقلية الجزائرية. ويساعد هذا المجلس الاستعماري مجلس آخر يتكون من خيرة العناصر وهم ثلاثة من الفرنسيين وخمسة من

المسلمين واثنان من الإسرائيليين على تكون مهام هذا المجلس البلـــدي إداريـــة فقط. أما الأمور الأخرى كالأحوال الشخصية لا بد من إخضاعها إلى مجلـــس قضائي يتكون من كاتب ضبط وحاجبين وثلاثة مترجمين (مســـلم ويهـــودي وممثل عن الملك) فيكون مجموع الأعضاء11 عضوا. واقترح ضرورة الاستئناف في الأحكام على مرحلتين: الأولى استئناف أمام المجلس الاستعماري والثانيـــة التماس العفو من ملك فرنسا.

طالب باعتماد مبادئ الشريعة الإسلامية في حل القضايا المتعلقة بـــالأحوال الشخصية للجزائريين وإشراك ذلك بتأسيس محكمة ملكية يـــديرها قاضـــيان مسلمان. هذا في المناطق الخاضعة للفرنسيين. أما في الأماكن التي لم تخضع بعد بشكل مطلق على السلطة الفرنسية أن تعين فرنسيا يكون برتبة مدير يســـاعده مسلمان وحاشية. بجانب تشكيل لجنة خيرية لإدارة أملاك الأوقاف. وطالـــب بضرورة استبقاء المساجد على حالها وإعادة ما أخذته السلطة الفرنسية وفقـــا لمبدأ إسلامي وهو أنها ملك لكافة المسلمين. وطالب ببناء المستوصفات للعلاج والملاجئ للمرضى وتدريس اليتامى. وطالب بتسجيل الـــولادات والوفيـــات وعقود الزواج. وعلى فرنسا أن تفرض الضرائب بقوانين ثابتة ومعقولة علـــى القبائل. واستحسن إصدار جريدة تتحدث للجزائريين عن الصناعة والزراعـــة والفنون الهامة. وأخرى لحث الجزائريين على غرس الأشجار المثمرة وبناء شبكة عمرانية حديثة، على أن تطلق حرية التجارة خاصة المواد المتعلقـــة بالفلاحـــة كالزيتون. بناء على هذا العرض المختصر نستخلص ثلاثة أمور:

الأول هو أن أحمد بوضربة يعد من العناصر التي رضيت بالاستعمار الجديد في صورته المتحضرة المحدثة فهو من الأوائل الراغبين في سياسة الإدماج القائم على أن تكون الجزائر امتدادا لفرنسا شرط أن يكون التماثل بين الاثنين، وقد لقيت هذه السياسة معارضة حتى من الفرنسيين أنفسهم بحجة أن في التطبيق صعوبة لأنه لا يعقل أن يطبق قانون واحد على شعبين مختلفين ثقافيا، أي أنه لا يوجد تماثل اثني واقعي الذي هو شرط للتماثل القانوني. أيضا أن هذه السياسة الاندماجية تعرقل تطور الاستعمار الذي من مهامه نشر الثقافة الأوروبية على حساب ثقافة الشعب المستعمر.

الثاني هو أنه لم يكن راغبا في عودة النظام العثماني للبلاد ولعل هذا ما يفسر سبب ميله لفرنسا قبل أن تطأ أقدامها أرض العاصمة. مثلما يفسر سبب عدائه لأنصار النظام العثماني أمثال / الحاج أحمد باي وحمدان خوجة ومناصرته بقوة وجهرا للأمير عبد القادر الذي ألح على الحكومة الفرنسية أن تتفاوض مع هذا الأخير لإقرار السلام في الجزائر.

ثالثا أن أحمد بوضربة من الذين كانوا على دراية بالقانون الإداري والمدني الفرنسي ومن الراغبين في تحديثهما في الجزائر. وهو من العناصر المؤمنة بالتعايش السلمي بين الأديان. فهو من الذين ساهموا نظريا وتطبيقيا في التحديث الغربي للجزائر.

مما تقدم يتضح لنا التمفصل الذي عرفه الفكر العربي الإسلامي الذي تميز بفكر سلفي نصي وعقلي، وفكر "صوفي" غيبي، وفكر "ليبرالي" منبهر.

الجانب الفكري من «المقاومة» "الشعبية"
ضد التوسع الفرنسي[1]

1 - نشر هذا المقال في مجلة، المعالم، الصادرة عن جمعية التاريخ والمعالم الأثرية العدد 2 بقالمة، الجزائر 1987.

السؤال الذي نبدأ به الحديث هو ما هي خصائص وملامح هذه «المقاومة» الفكرية؟ وستكون الإجابة وفقا للنقاط الآتية:

1. البناء الاجتماعي الجزائري عشية الاحتلال.2 مستوى الفكر في الجزائر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.3 طبيعة الاستعمار الاستيطاني الفرنسي للجزائر. 4مواطن القوة وبواطن الضعف في «المقاومة» الفكرية.

1- البناء الاجتماعي الجزائري

من الضروري التحدث ولو باختصار عن هذا الجانب الاجتماعي لفهم «المقاومة» في بعدها الفكري لأن الهرم الاجتماعي كان يقوم أساسا على مجتمع المدينة ومجتمع الريف. فمجتمع المدينة يتميز بوجود الطبقة المالكة والحاكمة لأجزاء من لبلاد، ويتشكل معظم أفرادها من العثمانيين والحضريين والكراغلة ورجال "المخزن" وهذا في كبريات المدن الجزائرية كالعاصمة وقسنطينة وميلة ووهران وتلمسان. وبالرغم من قلة عدد أفراد هذه الطبقة إلا أنها كانت ميسورة الحال بالنسبة إلى غيرها بفضل الامتيازات المادية والمعنوية التي كانت تتمتع بها. ولهذا الوضع الاجتماعي دوره في تكوين نخبة مثقفة من الجزائريين كان لهم الدور الكبير في «المقاومة» خاصة في جانبها الفكري مثلما سنرى.

بجانب هذه الطبقة الحاكمة كانت الطبقة الثانية وتشكل أغلبية سكان المدينة وتتكون من العامة ذات المستويات الاجتماعية المتدينة والمسماة (بالبرانية (التي تعيش أجيرة إذ نزح معظم أفرادها من الأرياف وتمركزوا في المدن والضواحي.

وأدى هذا التباين بين الفئتين الاجتماعيتين داخل الهرم الاجتماعي بالمدينة إلى تذبذب وتذمر من العامة ضد الطبقة الحاكمة وهو ما سيعمل على إضعاف «المقاومة» "الوطنية" ويساعد الحملة الفرنسية على التوسع.

وفيما يتعلق بمجتمع الريف فهو يختلف في كثير من الأمور على مجتمع المدينة، لأن السكان به يشكلون الأغلبية والوحدة الاجتماعية والإدارية والاقتصادية كل في منطقة نفوذه. وتقوم هذه الوحدة على تملكها للأرض وعلى رابطة الدم. وكان هؤلاء يساهمون بطريقة مباشرة في تمويل خزينة الدولة. وتعتبر كل من الأسرة والقبيلة والأرض والنسب الأيديولوجيةَ التي كانت تتحكم في الريف. فكانت رابطة الدم عامل توحيد لأفراد المجتمع الجزائري في الريف. وهذا ما يفسر تمكن أسر جزائرية باعتمادها على العصبية من تولي القيادة الواسعة خلال مراحل تاريخية معينة مثل أسرة بني هاشم بالغرب وبني جناد في الوسط وآل امقران وابن قانة في الشرق. لكن مثل هذه الأسر لم تتطور وتشكل أنظمة سياسية قوية. وهذا ما يمكن أن نفسر به طبيعة «المقاومة» في الجزائر للاحتلال الفرنسي.

كان لهذا التركيب الاجتماعي في الريف مفعول في إحداث التباين بين طبقتين أو فئتين متميزتين اجتماعيا واقتصاديا؛ الأولى هي الأرستقراطية (التي يسميها البعض الإقطاعية) التي كانت تتكوّن من الشيوخ المرابطين وشيوخ القبائل ورجال المخزن. والثانية من عامة الفلاحين الجزائريين التي كانت تسيطر بشكل واسع على الريف وتتقاسم مردود إنتاجه. وبوجود هذا النظام الاجتماعي والإداري كانت قاعدة الهرم الاجتماعي الواسع هي المنتجة

الوحيدة. وفي نفس الوقت كانت الأكثر استغلالا من طرف الطبقة الحاكمة « الإقطاعية » وهو ما سيؤثر على «المقاومة» الوطنية.

ومن جانب آخر إن النظام العثماني أحدث سلطات متنوعة في المدينة وفي الريف بوقوفه إلى جانب بعض القبائل على حساب بعض القبائل الأخرى؛ وإلى بعض الطرق "الصوفية" على حساب الطرق الأخرى. وهو ما سيكون له مفعول وآثار على «المقاومة» الوطنية.

أيضا فالمعروف عن الثقافة في الجزائر خلال العهد العثماني أنها لم تحظ باهتمام كبير ومستمر من طرف رجال الحكم خلاف ما حظيت به قطاعات أخرى عسكرية واقتصادية ومدنية. وكل ما حدث من تطور ثقافي في الجزائر إنما قام على أكتاف المجتمع الجزائري من جهة؛ وعلى ذاتية الثقافة العربية الإسلامية من جهة أخرى. ومن ثم نشأت نخبة متنورة جزائرية من أصحاب الثقافة التقليدية التي تصدت للاحتلال الفكري الفرنسي مثلما سنرى في حينه.

2 – مستوى الفكر في الجزائر خلال النصف الأول من القرن 19

مما تقدم يتضح أن البناء الاجتماعي الجزائري يختلف من المدينة إلى الريف الأمر الذي يعكس التكوين الفكري للتشكيلات الاجتماعية الذي هو بدوره يختلف من شريحة إلى أخرى. ويمكن حصر الفكر في مستويات متعددة هي:

– **الفكر السلفي** القائم على أساس القرآن الكريم والسنة الشريفة. (فكر نصي)

- **الفكر "الصوفي"** القائم على قضايا ميتا فيزيقية مناقضة للسلفية في جوانب كثيرة.

- **الفكر التجديدي** القائم على حرية الفكر والتجديد والانبهار بالغرب.

ويعكس لنا التكوين الاجتماعي الجزائري وعلاقته بالوضع السياسي الضعف الكبير في تلاحمه وترابطه من حيث الشعور بالوحدة الواسعة في إطارها الجغرافي الحالي. ولعل سبب ذلك يعود إلى أن النظام العثماني لم يعمل على تكوين رأي وطني عام على الرغم من الصعوبة في الحديث عن وجود رأي وطني واسع وواحد موحد في هذا التاريخ. وكان هذا الأمر يؤدي إلى أن تضعف «المقاومة» في كل جوانبها إلا أن الذي حدث هو أن هذه «المقاومة» وخاصة في جانبها العقائدي استمرت قوية. والسؤال المطروح هو ما هو السر في ذلك؟

سنحاول التعرف على هذا من خلال العرض لمساهمات بعض الأطراف الجزائرية في «المقاومة» الوطنية.

3- طبيعة الاستعمار الفرنسي في الجزائر:

المعروف أن الحكومة الفرنسية لم تكن واضحة في سياستها بداية الأمر من ذلك أنها التزمت الحذر والترقب وبالتالي التردد في أي شكل من أشكال الحكم يمكن إقامته في الجزائر بعد أن أتمت احتلالها. ويبدو أن ذلك التردد لم يكن عن تقصير من جانب السلطة الفرنسية إنما كان محكوما إلى عاملين: الأول تفطنها إلى أن ظروف الجزائر والظروف الدولية كانت تقتضي ملازمة هذا اللون من السياسة. الثاني يتعلق بأوضاع فرنسا الداخلية. وبعد أن اتضحت لها الأمور أعلنت السلطة الفرنسية عام 1834 رسميا أن الجزائر امتداد لفرنسا.

والحقيقة أن هذا الإعلان ليس بالأمر الغريب. بل هو نتيجة طبيعة لأهداف الاستعمار الاستيطاني. لأنه من خلال دراسة الحركة الاستعمارية داخل العملية التاريخية تتأكد حقيقة وهي أن الاستعمار الفرنسي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتخلى عن الجزائر بسهولة. أو أن يتوقف عن المزيد من التوسع خارج حدود الجزائر وإلا يكون هذا متناقضا مع فلسفة الاستعمار ذاته.

لأن المعروف أن للاستعمار أشكالا تطورت عبر مراحل تاريخية منها: الاستعمار التقليدي والاستعمار الاستيطاني والاستعمار كدولة عادية.

ففيما يتصل بالاستعمار الاستيطاني فإن أساسه اجتماعي واقتصادي وثقافي. لأن المتعارف عليه أن الدولة تتكون من إقليم وشعب وحكومة ومقومات بينما تقوم فلسفة هذا الاستعمار على أن أساس الدولة يقوم على إحداث نظام غريب على ذلك الإقليم من طرف قوة ما. وهو ما حدث في أمريكا وجنوب إفريقيا وفلسطين وقد حاولت أن تطبقه فرنسا. لأن من أهداف هذا الاستعمار تحقيق ثلاثة أشياء:

الأول: إقامة كيان اجتماعي غريب.

الثاني: إقامة نظام سياسي جديد.

الثالث: ربط الشعب المستعمر، بحضارة وثقافة المستعمر الغازي.

ويتم هذا الاستعمار خلال أربع مراحل أساسية هي:

الأولى: الغزو والاحتلال.

الثانية: السيطرة المنظمة والواسعة.

الثالثة: تشجيع الهجرة الاستيطانية لبناء قاعدة ديموغرافية غير طبيعية موالية ومناصرة للقوة العسكرية.

الرابعة: الانفصال في النهاية عن البلد الأم.

وقد حاول الاستعمار الفرنسي تطبيق هذا اللون من السياسة فنجح في عملية الغزو والاحتلال والسيطرة العسكرية والإدارية الواسعة. وكذلك في إقامة كيان اجتماعي ونظام سياسي ولكنه فشل في تحقيق الهدف الكبير والمتمثل في ربط الشعب الجزائري حضاريا بفرنسا. وفشل كذلك في الانفصال عن فرنسا على الرغم من محاولات المعمرين وضباط الجيش للوصول إلى هذا. فكان الفشل خلاف ما وقع في أمريكا وجنوب إفريقيا. لأن الموجة الاستعمارية نجحت في تشجيع الهجرة الأوروبية التي تعد لونا من ألوان الاستعمار الاستيطاني حيث وضعت هذه الهجرة نفسها في وضع متناقض مع الجزائريين وأدى ذلك التناقض إلى نتيجة طبيعية وهي استعمال العنف كوسيلة للحصول على الأهداف المشار إليها، ومن ثم صارت العلاقة بين الاستعمار والسكان الجزائريين علاقة إبادة ونفي وكفاح.

وانتقلت القضية الجزائرية من قضية وطنية تخص العلاقات الفرنسية الجزائرية إلى قضية دولية استقطبت اهتمام الرأي العام الشعبي والرسمي. بل وتطورت من قضية اقتصادية ذات مصالح مشتركة بين دول حوض البحر المتوسط وشركاته إلى قضية فكرية وسياسية شغلت بال المفكرين على مختلف مستوياتهم بطرحها قضايا مثل قضية الحرية والمستقبل والإدماج والمساواة والتوسع والاحتلال والجلاء والاستقلال والدين والحضارة والتجارة الحرة والصناعة الوطنية

والقومية. والسؤال: ما هي إسهامات «المقاومة» الفكرية في تطوير مثل هذه القضايا؟

4- مواطن القوة والضعف في «المقاومة» الفكرية.

قبل الحديث عن هذه «المقاومة» يحسن بنا أن نشير إلى بعض المفاهيم وأولها:

مفهوم الفكر الذي هو الشيء ذاته الذي يدور حوله التفكير ومهمته معالجة القضايا بالتأمل والمحاكمة والتمييز قصد الوصول إلى رأي معين وبالتالي إلى موقف معين تجاه قضايا خارجية عن الذات. ومن ثم يمكن الحكم على أن الفكر الإنساني بعامة والجزائري بوجه خاص إنما هو نتاج لمخزون فكري اجتماعي مترسب من قديم ومتصل الحلقات بالحديث.

مفهوم الكفاح السياسي. إن السياسة أفكار، لأن الصراعات السياسية عبر مراحلها التاريخية هي في جوهرها صراعات بين اتجاهات الأيديولوجيات نفسها أو بينها وبين العقائد. وهي في النهاية مذاهب وآراء وأفكار غالبا ما تظهر في حزب سياسي يتمسك ببرنامج معين ملزم لأعضائه بالتعصب لمبادئه وغالبا ما تكون هذه الأحزاب على جانب عال من التنظير.

ولهذه الأحزاب والأنظمة ممارسات عملية ونظرية وهي التي تسير بالكفاح السياسي الذي يقوم به شعب ما /أو مجموعة ما / ضد قوة حاولت نقل إرادتها وفرض سيادتها على ذلك الشعب أو على تلك المجموعة. وللكفاح أشكال ووسائل مختلفة منها الكلمة والسلاح والمقاطعة، وبناء على هذا يكون معنى الكفاح السياسي في النهاية الحصيلة الفكرية التي تقوم على التصور للواقع المشكل من التراث الحضاري لذلك الشعب ولأهداف ونوايا ذلك النوع من

الاستعمار. ومن هذا التصور ينطلق الكفاح السياسي فيرسم الطريق ويحدد الهدف ومن ثم يساهم في تشكيل وتثمين مرحلة من مراحل ذلك الشعب ويساهم في تغيير الواقع وإثراء الفكر. وبهذا الكفاح تنشأ العلاقة بين المطالبة بالحقوق الشرعية وبين تلك التي تحاول أن تكرس سلطتها الغازية، وتتطور هذه العلاقة لتصبح صراعا بين الأيديولوجية والسلطة السياسية.

وأولى مراحل الكفاح السياسي الفكري الوعيُ وقد ظهر هذا الوعي في العصر الحديث في الجزائر عند العلماء وأنصاف العلماء الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية الدفاع عن البلاد حين فضحوا نوايا الاستعمار الاستيطاني وكانوا أفرادا وجماعات وأحزابا غير محترفة. ويجري الكفاح السياسي عادة على مستويين رئيسيين وهما:

الأول يكون داخليا بين الأفراد أو الجماعات أو القبائل من أجل الوصول إلى السلطة أو المشاركة فيها بشكل أو بآخر. والثاني بين السلطة الحاكمة أو الغازية والمحكومين.

وبهذا يكون الكفاح السياسي عملا سياسيا منظما محترفا أو غير محترف يقوم به طرف ما قد يكون هو صاحب الحق الشرعي من أجل التأثير على السلطة والضغط عليها لغاية هي ترك البلاد لأهلها أو إرغامها على وضع مشاريع تخدم الصالح العام.

يختلف الكفاح السياسي بل الصراع السياسي من مستوى إلى آخر. ومن فترة تاريخية إلى أخرى. ومن تفسير إلى آخر؛ من ذلك أن الماديين الماركسيين يرون المعارضة السياسية هي في الواقع ناتجة عن البناء الاجتماعي والاقتصادي

انطلاقا من مفهوم أن طرق الإنتاج تحدد وتولد طبقات اجتماعية متنازعة فيما بينها منها المسيطرة ومنها المسيطر عليها، إذ بالوسائل المادية والإعلامية تستخدم الطبقة الأولى الطبقة الثانية وتجعل منها أداة طيعة من أجل تنفيذ مشاريعها فما يكون على هذه الأخيرة إلا الثورة عليها. وبهذا يكون الكفاح السياسي عملية طبيعية في المجتمع وظاهرة تاريخية مبعثها الحوافز الإنسانية القائمة في أي مجتمع. مثلما تكون السبب الدافع إلى الصراع ضد الآخرين من أجل البقاء والحفاظ على الذات. ولهذا التفسير علاقة بمذهب الفلسفة البرجوازية من حيث المنهج والقائلة بالتنازع من أجل البقاء وإن كان عماد هذه الفلسفة الاقتصاد الداعي إلى التنافس الاقتصادي الحر، والمقصود هنا بالتنازع هو في الفكر الليبرالي لا الفكر الدارويني.

من الناحية المنطقية -لما ينتقل التنازع من أجل البقاء- من المستوى المادي إلى المستوى الفكري يكون أكثر حدة؛ لأن عامل المنافسة في الميدان الفكري يفرز صفوة بل نخبة أكثر كفاءة وأكثر قدرة في التأثير على الإدارة والسياسة القائمة في حين لما يكون التنازع على المستوى المادي سيساهم في تشكيل طبقة حاكمة ومالكة للبلاد تتقاسم الإنتاج دون بذل الجهد المستحق.

إن هذا التفسير لا يصدق في رأيي على نوع الكفاح السياسي الذي عرفته الجزائر لأن من القضايا الأساسية التي يجب الاعتقاد والاقتناع بها هي أن إدخال الدين الإسلامي في مضامين القوى السياسية العامة ليس بالأمر الغريب مثلما يبدو للبعض لأن السياسة بمختلف أشكالها مشدودة إلى مقومين أساسين هما الدين والأيديولوجية فإن كان عماد السياسة المقوم الأول كانت ذات قيم

أخلاقية متميزة وإن كان عمادها المقوم الثاني تكون لا قيم أخلاقية لها أو تكون لها بالأصح قيم أخلاقية معاكسة. وعلى هذا الأساس يمكن القول إن ما ظهرت من «مقاومة» فكرية جزائرية ضد الاحتلال الفرنسي إنما كان أساسها الدين أكثر لا الأيديولوجية. وأن كل المستويات الفكرية الجزائرية التي رفعت لواء «المقاومة» جعلت من الدين الإسلامي العماد الأقوى في كفاحها على الرغم من اختلاف تكوينها واختلاف وجهات نظرها إذ كانت شريفية وسلفية وطرقية صوفية وتجديدية. إذ كان الكل ينعت الاحتلال باسم "المسيحي الكافر" ومن شعاراتهم "الجهاد" وخاصة من طرف شيوخ الدين السنيين والطرقيين الذين مزجوا الدين بالسياسة. وذهب بهم الأمر إلى التفكير في تولي السلطة في الجزائر بعد أن حدث فراغ بها إثر سقوط النظام العثماني بحيث دعوا كل السكان إلى ضرورة إعلان الولاء إلى بعض الزعامات الجزائرية. وقد لعبت الزوايا الدور الكبير عبر أنحاء الوطن في تنظيم الصفوف، والدال على ذلك أن كل الانتفاضات التي قامت ضد التوسع الفرنسي إنما بتحريض من شيوخ كانوا ينتمون إلى زوايا. وكان الجزائريون يقدمون لها فروض الولاء معتصمين بها متعصبين لها، ومن ثم يمكن الحكم على هذه الطرق بأنها بقدر ما كانت نقمة بإغراقها لكثير من أفراد المجتمع في الخرافة والشعوذة بقدر ما كانت نعمة لقيامها بدور «المقاومة» في الحركة الوطنية الجزائرية وفي مقدمتها الطريقة الرحمانية والقادرية واكبر دلالة على ما نقول إن «المقاومة» التي قادها الأمير عبد القادر كان أساسها طرقيا بجانب الطرق الأخرى كالطيبية والدرقاوية والتيجانية. وبموقف شيوخ الدين هذا كانت «المقاومة» الوطنية «مقاومة»

شعبية لا «مقاومة» نخبوية على خلاف ما كان من طرف «المقاومة» التي قام بها أصحاب الفكر التجديدي (حمدان خوجة مثلا).

الملاحظ أن الفكر "الصوفي" وجد في الجزائر قبل مجيء العثمانيين وقد سمح وجاق الجزائر لبعض الطرق بأن تنافس المرابطين فيما بينهم وبين العلماء. وتعدى ذلك إلى المنافسة بين المدرسة والزاوية فنشط الفكر الروحي وضعف الفكر العقلي.

ولنا أن نتساءل عما إذا كانت هذه «المقاومة» عفوية تلقائية أم واعية؟ إن المقيم للمقاومة الوطنية وخاصة في بعدها الفكري يحكم على بعض المستويات الفكرية بأنها تحركت بطريقة عفوية، أي بوازع ديني وعزة نفس لا كحركة سياسية واعية ومدركة للواقع وأخص بالذكر الطرقية التي لم تكن على دراية بأمور الأبعاد السياسية الحديثة، ولعل هذا ما يفسر بعض المواقف الثائرة على الأمير عبد القادر حين فتح هذا الأخير باب التفاوض مع السلطة الفرنسية وعقد معها معاهدات. لأن شيوخ هذه الطرق بناحية الغرب الجزائري اعتبروا هذا الأمر مناقضا لما تدعو إليه الشريعة الإسلامية التي لا تسمح بالتفاوض – حسب رأيهم- (مع الكافر) في حين كان الموقف آنذاك يتطلب من الأمير استخدام الطرق الدبلوماسية لتقوية الصفوف الوطنية.

ويكون الحكم على المستوى الفكري الآخر التجديدي أنه كان واعيا للواقع وهو ما يمكن على أساسه التمييز بين نوعي «المقاومة» والمتمثلين في الطرقية والتجديدية إذ سلكت الأولى طريق العنف في الريف ومن ثم أحدثت علاقات عداء ونفور ضد الاحتلال. في حين سلكت الثانية خاصة في العاصمة وهي

المشكلة من النخبة الوطنية طريق التفاوض والسلم مع السلطة الفرنسية لأنها أدركت تفوق خصمها وعدم مناسبة الظروف لها.

وحسب التقدير أن على المفكر أو المصلح أو المكافح ألا يكتفي بعرض معلومات قالها غيره أو جملة من النظريات والتطورات الحضارية إنما يجب عليه أن يفهم الواقع ويدرك العوامل القوية التي تسير هذا الواقع. ومن ثم يصبح من الضروري على هذا المفكر أن يصف الواقع ويقارنه بوقائع أخرى ومن ثم يجب عليه ألا يجهد نفسه في البحث عن مبررات لتمويه وتغطية بعض القضايا فيكون قد عمل على إسكان هذا الواقع وعزله عن حركة التطور. إذن عليه ألاّ يعمل بهذا. ومن ثم يتحول الفكر الحقيقي إلى كفاح سياسي عملي لا إلى خطابيات. إلى رسالة لا إلى وظيفة فيخرج الفكر بعدها من الدائرة الضيقة بحديثه عن الأفراد بلغة المناقب والتصفيق لهم إلى دائرة أوسع تساهم في بعث معالم حضارية.

وقد حدثت محاولات من هذا الفكر الواعي للواقع لدى بعض الجزائريين من أصحاب الفكر التجديدي أمثال المفتي محمد العنابي وحمدان بن عثمان خوجة وأحمد بوضربة والحسن بن عزوز والأمير عبد القادر وغيرهم. إذ استطاع أولئك أن يعوا تراث شعبهم ويدركوا واقعه ويعرفوا متطلباته والظروف التي من حوله فبذلوا جهدا لإخراجه من دائرة التخلف - بالفكر- رغم ما اعترضتهم من مضايقات ومصادرات ونفي. بجانب محاولات الإغراء بالمناصب.

والدارس لآثار معظم هؤلاء الجزائريين يتأكد أن هؤلاء لم يكتفوا بعرض ووصف الواقع عن طريق ترديد النظريات وإنما حكموا على الواقع من خلال

فضحهم للسياسة الفرنسية المطبقة في الجزائر فهذا حمدان خوجة يقول: زعم دي بورمون إنه جاءنا ليقضي على المظلمة القائمة في الجزائر ويعمل على تطبيق القانون بالعدل والإنصاف... ويدعي كلوزال أنه من حزب الأحرار.. فهو يستخدم مقياسين مختلفين متناقضين... فصار من الأغنياء على حساب ثروة الجزائريين وشرف الأمة الفرنسية ومن ثم أمكن الحكم عليه بأنه الرجل القائد ذو الوجهين. وتتأكد حقيقة لدى الجزائريين وهي أن الفرنسيين لم يأتوا بنية نشر مبادئ الحرية ومقومات المدنية إنما جاءوا بهدف الاستبداد بهم واستعبادهم. وبهذا تكون هذه العناصر الوطنية أمثال حمدان أول من خاطب السلطة الفرنسية انطلاقا من ثلاثة مقومات أساسية هي:

1. مقومات الحضارة الإسلامية.
2. المبادئ العامة الداعية إلى حرية الإنسان والمساواة.
3. المعاهدة التي أبرمت بين الداي حسين ودي بورمون.
4. فكان حمدان وغيره من العناصر الوطنية على دراية كبيرة بما كان يحرك الواقع سواء من داخل الجزائر أم من خارجها فوصفوا سبب نفور الجزائريين من الاحتلال الفرنسي وأرجعوه إلى العوامل الآتية:

* استبداد السلطة الفرنسية.
* شعور الجزائريين باستعباد أمة أجنبية لهم.
* الاختلاف في الديانة.
* خشية المآل إلى الفقر.

وطرح حمدان تساؤلات فكرية قوية منها: هل كان من الضروري أن يصدم الجزائريون في قيمهم الأخلاقية وفي عقيدتهم الدينية؟ ثم يواصل القول: لأنه من خلال سلوك الولاة في الجزائر نذهب إلى الاعتقاد أنهم ينشرون الشقاق من أجل التضحية بالجزائريين وهذا يتنافى مع المبادئ الدستورية. على الرغم من أن للجزائريين الحق في التمتع بالحرية وبكل الحقوق بنفس الطريقة التي تتمتع بها الأمم الأوروبية وإلا لماذا يدرس القانون العام في أوروبا وفي فرنسا. ولماذا وجدت مدارس للحضارة والحرية فإذا كان حب وطنكم راسخا في قلوبكم فغير ممكن عدم استجابتكم لمطالبة حقوقنا وكيف لا ونحن مثلكم في حب وطننا. ثم طرح حمدان قضية أخرى دلت على التفطن والدارية لما كان يجري على الساحة الدولية وذلك حين قال: هل كانت فرنسا تتبع نفس الأسلوب المطبق في الجزائر لو كان الجزائريون يتدينون بالمسيحية. وما هو الغرض من تقديم ستين مليونا من الفرنكات كمساعدات لليونانيين؟ ساهمت فرنسا وحدها بالثلث ونفس الشيء بالنسبة إلى بلجيكا وبولندا والبرتغال. ولهذا ترى اليونان تتكون بسرعة وبلجيكا تنفصل عن هولندا والغريب في هذا أن تلك الشعوب تنقذ بأموال الجزائريين على الرغم من أن الجزائريين أناس يحكمون بطرق تعسفية لأننا نظلم في الجزائر وإذا رفعنا أصواتنا ننفى وهو يتعارض كله مع المبادئ التحررية.

كانت «المقاومة» المسلحة الجزائرية ضعيفة أمام القوة الفرنسية سواء «المقاومة» الفكرية التي تزعمها شيوخ الدين فكانت «مقاومة» شعبية عامة ولم ينقصها إلاّ عامل الوعي السياسي العميق فقد كانت تعتمد على قوة إيمانها

وإمكانياتها الذاتية أم «المقاومة» التي تزعمها أصحاب الفكر التجديدي التي فهمت الواقع وحاولت تطويره. إلا أنه كان ينقصها عامل السلاح والسند الشعبي القوي الواسع من طرف قاعدة الهرم الاجتماعي الجزائري سواء في الريف أم في المدينة؛ وهذه في رأينا المفارقة التي تميزت بها «المقاومة» الجزائرية خلاف الحركة الوطنية السياسية أو الثورة التحريرية اللتين وجدتا الدعم الشعبي والسياسي الواسع. ومن ثم لم تتعد «المقاومة» في مرحلتها الأولى الأمر الذي أدى إلى أن تتضافر جملة من العوامل كانت لصالح الاحتلال الفرنسي. وبالرغم من ذلك فقد حققت هذه «المقاومة» نتائج كثيرة أولها أنها أثرت على السياسة الفرنسية سواء بشكل مباشر أم غير مباشر وكذلك على الرأي العام الفرنسي. من ذلك صوت المعارضة الذي انتقد بقوة السلطة الفرنسية الحاكمة إلى درجة أن الحكومة الفرنسية صححت كثيرا من مواقفها تجاه الجزائريين حيث أوفدت لجانا خاصة لدراسة المطالب التي رفعها بعض الجزائريين. أيضا أن العناصر الجزائرية نقلت القضية الجزائرية من قضية تتعلق بأحوال فرنسا والجزائر إلى قضية فكرية تتعلق بمطروحات سياسية وفلسفية. أيضا أن ما قدمه أولئك الجزائريون من أفكار كان مرحلة تمهيدية لتطور وظهور أحزاب وجمعيات وطنية فيما بعد، من ذلك أن جمعية العلماء كانت في رأينا امتدادا لما سبق من مطروحات فكرية جزائرية. وأيضا أن ما ظهر من أفكار دعت إلى الإدماج إنما هو امتداد لأفكار جزائريين دعوا إلى ضرورة تطبيق هذا اللون من السياسة خاصة أفكار أحمد بوضربة والحسن بن عزوز اللذان نادا منذ بداية الاحتلال

بضرورة تطبيق سياسة الإدماج نظرا لما له من مصلحة تخدم الشعبين الفرنسي والجزائري.

مما تقدم نخلص إلى القول إن «المقاومة» الوطنية كانت ثرية ومتعددة الأبعاد. وأن للجزائريين أدوارا مشرفة على الرغم من قلة إمكانياتهم. وكان للمقاومة الفكرية دور مستمرا ولها الفضل الكبير في بعث الوعي السياسي في أوساط الشعب الجزائري خاصة العناصر الوطنية المتفتحة وقد تمكنت هذه «المقاومة» الفكرية من حفظ التوازن للشخصية الجزائرية في عمقها العربي الإسلامي انطلاقا من الزوايا ومن جهود الشيوخ.

1. **مصادر ومراجع معتمدة**

2. - أحمد بن داية، أصول السياسة المقارنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976.
3. - إبراهيم العدوي، الصراع بين الأمة العربية والاستعمار الجديد، دار النهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة 1969،.
4. - حنفي بن عيسى، قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر، دار التنوير للطباعة والنشر.ط.1 بيروت1981،.
5. - سعد الله أبو القاسم،تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ج2، ش، و، ن، ت. الجزائر198.
6. ، المفتي الجزائري ابن العنابي ش، و، ن، ت. الجزائر 1976.
7. -- محمد بن عبد الكريم، محمد ابن عثمان خوجة ومذكراته، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت 1972.
8. - مجدي حماد، النظام السياسي الاستيطاني، دار الوحدة ط1، بيروت 1981.
9. Hamdan k. le miroir. tr. par: H.D. goeschy. Paris 1833
10. Yver (G.) «mémoire de Boudarba » , in ,R.A. 1913.P- P. 218 - 244.

إسماعيل "عربان"
والسياسة الفرنسية في الجزائر[1]

1 - نشر هذا المقال في مجلة سيرتا، التي يصدرها معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، العدد 4، الجزائر 1980، ص-ص. 71-80.

دراسة شخصية إسماعيل "عربان" والسياسة الفرنسية في الجزائر (1840-1870) تعد من أهم الدراسات في تاريخ الجزائر الحديث نظرا لما لهذه الشخصية من أبعاد فكرية ومواقف سياسية، من جهة. ولأهمية هذه الفترة من تاريخ الجزائر، من جهة أخرى.

لأن في دراسة هذه الشخصية دراسة لتيار فكري أثر في تاريخ المرحلة ونعني به تيار السان سيمونية[1] وانتشارها سواء في مصر أم في الجزائر ومدى قوتها في توجيه السياسة الفرنسية في هذا البلد. وكذلك دراسة للصراعات التي استمرت طويلا بين المدنيين (المعمرين) والعسكريين (ممثلي الحكومة الفرنسية) وبين المعمرين والأهالي. ودراسة أيضا لمشروع قيام "المملكة العربية" الذي حاول تطبيقه نابليون الثالث[2].

وبعد اطلاعنا على دور الوثائق وبخاصة في بعض الأرشيفات الفرنسية اتضح أن موضوعا كهذا جدير بالبحث. ونأمل في أن أقدم رسالة بحث في هذا الشأن خاصة وأن الذي شجعنا أكثر توفر المادة الخبرية لأن أرشيف ما وراء البحر Archives Outre-M بأكس - أون - بروفنس - غني بالوثائق القيمة التي

1 - نسبة إلى سان سيمون المولود في باريس يوم 17 أكتوبر 1960 اعتنق مبادئ الثورة الفرنسية ودعا إلى اتحاد مختلف الطبقات في تيار واحد خدمة للصناعة. وبعد وفاته عام 1825 أنتشر أتباعه وعلى رأسهم أنفانتان (Enfantin).

2 - تولى نابليون الثالث (1808- 1873) الحكم من عام 1848 إلى 1870.

تدفع الباحث كي يكتب عن هذه الفترة وبخاصة عن إسماعيل "عربان" والدور الذي لعبه في الجزائر.

من هذه الوثائق نذكر الرسائل التي تبادلها مع شخصيات سياسية هامة محفوظة على أربعة ميكروفيلم تشتمل على حوالي ستمائة صورة (600) [1] بالإضافة إلى الوثائق الأخرى التي لا تقل أهمية[2].

هذا عن جانب من الوثائق لهذا الأرشيف. أما مكتبة لارسنال (الترسانة) (Bibliothèque de l'Arsenal) فهي غنية جدا بالوثائق الهامة التي تتحدث عن إسماعيل "عربان" فيها ما يقرب من سبعمائة (700) رسالة تبادلها مع شخصيات لعبت أدوارا هامة في السياسة الفرنسية في الجزائر. بجانب مخطوط ذي 53 صفحة من الصفحات العادية مكتوب بيد إسماعيل "عربان" نفسه يحتوي معلومات قيمة عن حياته ونشاطه السياسي[3]. زيادة على هذا يتوفر في المكتبة الوطنية بباريس والجزائر العاصمة كم هائل من المادة المصدرية التاريخية.

من هو "عربان"؟

ولد "عربان" بكيان (Cayenne) عاصمة غيانة (Guyane) في أمريكا الجنوبية يوم 31 ديسمبر 1812 وتوفي في الجزائر العاصمة يوم 4188/01/31. كان والده يحترف البستنة وأمه أمة سوداء جاءا به إلى

1- A.O.M. 4 Micro, 1x1.

2. Ibid. F80/ 375. F80/373

3. Bibliothèque de L'Arsenal, Catalogues (W29-12). (W29-10).

مرسيليا حيث التحق بإحدى الثانويات التي لم يتمكن من مواصلة الدراسة بها بسبب مضايقة زملائه له لكونه أسود اللون. وكانت هذه المعاملة السيئة من العوامل التي دفعته إلى اعتناق المذهب السان سيموني القائم على خطاب إنساني[1].

وفي سنة 1833 كلفه الأب الروحي وهو أنفانتان (Enfantin) بالسفر إلى مصر لنشر مبادئ السان سيمونية القائمة على فكرة أساسية هي توحيد العالم الشرقي والغربي على أساس أن هذا العالم وحدة واحدة موحدة- حسب رأيهم - وملك لله وحده[2]. وأن ذلك لا يتأتى إلاّ عن طريق ربط القارات بحفر القنوات بين إفريقيا واسيا وأمريكا وأوروبا لتتفاعل ثقافات الشعوب ولتتقارب إلى بعضها البعض.

وفي مصر رغب "عربان" أن يمارس العمل في المسرح وأن يكون ممثلا إلا أن أستاذه أنفانتان أقنعه بأن يتخلى عن ذلك قائلا له ما يمكن ترجمته: لا أرغب

---

1 - للمزيد يراجع:

Marcel (E.). Les St. Simoniens en Algérie. Paris 1941. p-p. 67-68.

2 - وقد ساعدت العلاقات الحسنة بين فرنسا وحكومة محمد علي حاكم مصر على أن يتسع نشاط السان سيمونيين في مصر إذ انكب أنفانتان (Enfantin) وزملاؤه على إقامة مشاريع كثيرة مثل بناء المدارس الهندسية والتقنية والعسكرية كل ذلك كان لهدف توحيد الشرق والغرب. ولتحقيق هذا الغرض انكب أنفانتان على شق قناة السويس باتفاق مع دبلوماسيين أوروبيين. بعد أن كون « جمعية دراسة قناة السويس » ممثل عن فرنسا فيها. للمزيد من التوضيح ينظر. محمد طلعت عيسى، اتباع سان سيمون فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر، القاهرة 1957، ص124.

في أن أراك تمثل وتردد كلام غيرك... يجب أن تكون أنت منبعا لكلامك ومسرحا لنفسك وشعبك[1].

استقر "عربان" في دمياط وأنكب على تدريس اللغة الفرنسية لأبناء المصريين الذين اتخذ منهم أحسن الرفقاء. و لم يكتف بمهمة التدريس بل عكف على دراسة اللغة العربية والتعمق في معارف الحضارة الإسلامية. وانتهى به الأمر إلى اعتناق الإسلام سنة 1835 وتلقب باسم "إسماعيل" بعد أن كان يدعى توماس "عربان" (Thomas Urbain).

ويتساءل الباحث عن سبب اعتناق إسماعيل للدين الإسلامي وتحوله من سان سيموني إلى مسلم. إن عوامل كثيرة تضافرت ودفعت "عربان" إلى الإسلام منها: اقتناعه بما في الإسلام من سماحة ورفعة الأخلاق بجانب طيبة قلب المجتمع المصري وحسن معاشره. علاوة عما كانت عليه نفسه الخيرة من حب فياض للإنسانية، فكان إسلامه عن اقتناع وكانت حجته في ذلك قوله: لتوحيد الشرق والغرب لماذا لا نعتنق الإسلام[2].

اعتنق الإسلام بصدق، ويتأكد هذا من مقالاته الكثيرة والغزيرة التي نشرها عن الإسلام، ومن مواقفه المتعددة اتجاه المسلمين خاصة في الجزائر، لأن إسماعيل كان يؤمن بأن رسالة المسلم الحقيقي ألا يؤمن فقط، بل لا بد عليه أن يترجم

---

1. Marcel Emerit, op. cit., P.69.

2- المرجع نفسه. ص. 72.

كتب مرة في سبتمبر 1835 قائلا لقد حان الوقت أن يتقارب المسلمون والمسيحيون فيما بينهم

ذلك في أعمال تعود على المجتمع بالخير. وبالفعل عكف إسماعيل على تـــدريس المبادئ الإسلامية بأحد المساجد المصرية وفقا لمستوى التطور العلمي آنذاك. إلا أن إسماعيل لم ينجح في مهمته كمدرس بسبب النقص في وســـائل التـــدريس والإمكانات المادية وحداثة عهده بالتعليم فعاد إلى فرنســـا في فبرايـــر 1836. وبعدها توجه إلى الجزائر فوصلها سنة 1837.

ولسنا ندري ما إذا كان هناك هدف معين من مجيء إسماعيـــل إلى الجزائـــر بالذات، إنما المحتمل جدا أن يكون سبب ذلك ما عرفه من خلال الكتابات عن الاضطهاد الاستعماري في الجزائر[1]. ووفقا لخطة رسمها الزعيم الروحي للســـان سيمونية الأب أنفانتان. إذ أن أتباع سان سيمون لما فشلوا في تحقيق أهـــدافهم في فرنسا وفي مصر بسبب كثرة الأمراض والمضايقة البريطانيـــة أرادوا تجديـــد مساعيهم في بلاد جديدة كالجزائر. لأنهم على ما يبدو كـــانوا يعتقـــدون أن الجزائر أرض خصبة فمن السهولة بمكان أن ينجحوا في استثمار مشروعهم.

ومهما يكن من أمر فمبادئ السان سيمونية رافقـــت الحملـــة الفرنســـية (1830) إذ أن الكثير من الضباط الفرنسيين كانوا سان سيمونيين نذكر منهم على سبيل المثال لامورسيير (Lamoricière)[2] الذي ذهب به الأمر فيما بعد إلى

---

1 - كثير من الليبراليين انتقدوا فكرة الغزو والاستعمار الفرنسي، للمزيد من التوضيح ينظر مقالنا: "الاحتلال الفرنسي للجزائر وردود الفعل حوله "، سيرتا، العدد 3، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، 1980.ص ـــ ص.90 ـــ 103.

2 - تخرج لامورسيار ليون (Lamoricière) (1806-1865) من مدرسة تقنية. ثم عين ملازما في الهندسة العسكرية سنة 1830 وصار نقيبا، وفي سنة 1833 تولى قيادة فيلق.

محاولة تكوين حكومة سان سيمونية في الجزائر بواسطتها يمكن أن يتحد الشرق والغرب وأن تغزو الحضارة الغربية الشرق. وكذلك النقيب بيجو(Bigot) الذي قتل بعنابة سنة 1831. وبدور هؤلاء وغيرهم كبر نشاط السان سيمونية في الجزائر وكبر أكثر بوصول كل من ماصول (Massol) ولوجي (Loge) في أوت سنة 1833 إلى الجزائر. وكان أخطرهم مواسي رتوري (Moise Rertouret) اليهودي الأصل الذي وصل الجزائر سنة عام 1834 جاء خصيصا لنشر مبادئ السان سيمونية وبأمر من أنفانتان[1].

ومن السان سيمونيين الذين كان لهم دور خطير في السياسة الفرنسية في الجزائر الجنرال الدوق دومال (Duc d'Aumale)[2]. وكذلك الجنرال بادو[3](Bedeau) اللذان حكما في الشرق الجزائري. كل هؤلاء وغيرهم سواء عسكريين كانوا أم مدنيين قد لعبوا أدوارا خطيرة في السياسة الفرنسية في

وفي سنة 1835 مقدما. وفي سنة 1840 جنرالا عن عمر لا يتجاوز 34 سنة حكم مقاطعة الغرب الجزائري وهو الذي كون فرق الزواف من الجزائريين.

1- Marcel Emerit, op. cit, P.67.

2 - كان الدوق دومال أحد أصدقاء أنفانتان والابن الرابع للويس فليب وهو الذي قضى على فرقة الزمالة للأمير عبد القادر في ماي 1843.

3 - رأى بادو ضرورة استغلال الجزائر بإقامة مستعمرات يديرها عسكريون ومدنيون، يراجع:

Marcel Emerit, op. cit., P-.P 152 - 153.

الجزائر على مختلف الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية كإقامة المشاريع العمرانية وبناء المدارس والطرق المعبدة والسكك الحديدية.

وبوصول إسماعيل أوربان إلى الجزائر تكونت عائلة سان سيمونية وتقلد هو مناصب هامة إذ لم يدع فرصة تمر دون أن يستغلها فاستخدم إمكاناته للتقرب من كبار القادة الفرنسيين وعلى رأسهم الدوق دومال الـذي صـار مترجمـه الخاص ابتداء من سنة 1842 ثم التحق بوزارة الحربية فاشتغل الترجمة في سلك الجيش الإفريقي.

وقد سجل لنا الرسام هوراس فرني (Horace Vernet) هذا التقـارب بـين دومال وإسماعيل في صورة جميلة توضح هيئة إسماعيل بجانـب دومـال أثنـاء هجومه على عاصمة الأمير عبد القادر المتنقلة (الزمالة)[1].

وفي سنة 1858 عين رئيسا لأول مكتب بوزارة الجزائر. ويبين هذا التعـيين جدية الحكومة الفرنسية في الاستيلاء على الجزائر كلية وتكوين نظام إداري لها يجعل منها دعما اقتصاديا وسياسيا لفرنسا.

وقد أولى الجنرال بيجو(Bugeaud)[1] عناية خاصة بالجزائر ليكون الاستعمار فيها رسميا بواسطة تكوين مستعمرات يديرها الجنود بأن منح بعضهم قطعا من

---

1 - ينظر جريدة leTemps du 31 Janvier 1884 بعد سقوط مدينة قسنطينة تفرغ الفرنسيون أكثر للقضاء على الأمير فاستولوا على معظم المدن الخاضعة لنفوذه الأمر الذي دفعه إلى أن يكون مدينة متنقلة ابتداء من سنة 1842 ضمت اثنتي عشرة قبيلة (12) علاوة عما انضم إليه من المتطوعين.

الأرض. إلا أن النتائج جاءت عكس ما كان يخطط لـــه بيجـــو. ولم يـــنجح الاستعمار الرسمي بواسطة العسكريين لسبب جوهري ينحصر في أن العسكريين بعد أن ينهوا الخدمة العسكرية يعودون لفرنسا تاركين المستعمرات مهجـــورة. فما كان من الحكومة الفرنسية إلا أن لجأت إلى تجربة أخرى بأن سمحت لأكبر عدد من المهاجرين من الفرنسيين خاصة، والأوروبيين بعامة وشجعتهم علـــى الذهاب إلى الجزائر للاستقرار فيها. فازداد عدد المهاجرين من 28 ألف ســـنة 1840 إلى أكثر من 110 ألف سنة 1848 من بينهم 52 ألف فرنسي[2].

وترتب على هذا الزحف الأوروبي على الجزائر اســـتعمار مـــدني بجانـــب الاستعمار العسكري. وتدعم هذا الاستعمار بإصدار سلســـلة مـــن القـــوانين والقرارات خولت للمعمرين الاستيلاء بطرق مختلفة على أجود الأراضي؛ منها قانون 1845 الذي صادر أملاك القبائل التي أعلنت عصيانها ضد الفرنســـيين. بجانب ما تم من استيلاء على أملاك الدولة (الـــدومين) (في ســـبتمبر 1830) وأملاك الحبس (الأوقاف) وأملاك الأتراك الذين هاجروا من الجزائر.

وقد واجهت الحكومة الفرنسية صعوبات في كيفيـــة الـــتحكم في الأهـــالي الجزائريين والأوروبيين المختلفين في الدين والعادات والتقاليد والآمال لذا كان أمام الحكومة الفرنسية تطبيق سياسة تتماشى وعزمها على اســـتعمار الجزائـــر

---

1 - بيجو من مواليد 1784 عين حاكما على الجزائر من سنة 1840 إلى 1847 توفي سنة 1849.

2 - براجع: صلاح العقاد، المغرب العربي، ط.3 مكتب الأنجلو المصرية 1969. ص.146.

كلها لهذا حاول بيجو أن يؤسس نظاما إداريا - ويشهد له هنا بأنه صاحب منهج إداري – إذ قسم الجزائر إلى ثلاث مناطق [1]:

الأولى: تنحصر في المدن والمناطق المجاورة لها وأغلبية سكانها من الأوروبيين وتخضع لنفس القوانين التي يخضع لها سكان باريس.

الثانية: هي التي كانت خليطا بين سكان جزائريين يخضعون لحكم عسكري وبين سكان مهاجرين يخضعون لإدارة مدنية أوروبية.

الثالثة: يسكنها الأهالي الجزائريون وتخضع للسلطة العسكرية عن طريق المكاتب العربية التي يرأسها جزائريون الذين كانوا يمثلون حلقة الوصل بين السكان والسلطة العسكرية.

وقد وقف الكثير من السان سيمونيين وعلى رأسهم إسماعيل "عربان" بجانب الأهالي الجزائريين ضد جشع المعمرين المدنيين. بحكم أن إسماعيل كان ضد الاضطهاد وأنه مسلم وذو إطلاع واسع فيكون بذلك قد أدرك أهم العوامل المحركة للسياسة الفرنسية ولطموحات الأهالي الجزائريين ولمطامع الأوروبيين المعمرين فأعلن موقفه صراحة ضد المعمرين وبخاصة ضد المدرسة الفرنسية التي سعت وبكل جهد إلى القضاء على الشخصية الوطنية، ويتضح ذلك من مقالاته ورسائله الكثيرة وكذلك من مؤلفاته مثل: "الجزائر للجزائريين" الذي نشره باسم مستعار هو جورج فوازان (Georges Voisin) ألح فيه على ضرورة تكوين الجزائريين والسماح لهم بالدراسة في مدارس -

---

1 - صلاح العقاد، المرجع نفسه. ص.147.

عربية - فرنسية (Ecoles Arabe-française) ودعا أيضا إلى أن الجزائر ليست مستعمرة بل هي "مملكة عربية" [1].

ويكون "عربان" قد أوحى لنابليون الثالث بتطبيق هذه الفكرة "المملكة العربية" لاسيما بعد أن زار الجزائر سنة 1860 حيث كان إسماعيل "عربان" أحد المقربين إليه بل مترجمه الخاص. هذا بعد أن عين مستشارا مقررا في المجلس الفرنسي الأعلى سنة 1860. وقد ساعده توليه مثل هذه المراكز على أن يحظى بعناية خاصة من طرف كبار الشخصيات.

والملاحظ في سياسة نابليون الثالث التناقض. وقد يكون سبب هذا التناقض أنه أراد به كسب معظم الأطراف. وقد يكون لقصر في رؤياه وإن كنا نرى فيه قصر النظر. إذ أنه من جهة حاول أن يحمي للأهالي حقوقهم في ضوء مشروع "المملكة العربية" وشجع الإدماج وشجع الهجرة الأوروبية وأقر الوحدة الجمركية بين الجزائر وفرنسا منذ سنة 1851 التي استفاد منها المستوطنون والرأسمال الحر. ومن جهة أخرى اعتمد على العسكريين في تسيير مخططاته. ونتج عن هذه السياسة أن:

---

1 - يعود تاريخ هذه العبارة "المملكة العربية" إلى سنة 1834 ويكون دومال هو الذي صرح بها وتبناها إسماعيل "عربان".

يراجع le Temps du Janvier 1884 ينظر كذلك:

Annie-Rey Goldzeiguer, Le royaume arabe, S.N.E.D., Alger 1977.

- اتسع أمر المستوطنين سياسيا واقتصاديا وكثـر عـددهم فبلـغ سـنة 1870حوالي 295 ألف.

- استفحل شأن اليهود الساكنين في الجزائر.

- ضعفت السلطة العسكرية بمجرد انهيار الإمبراطورية الفرنسية 1871.

- اتسع الصراع بين المهاجرين الأوروبيين والمهاجرين الفرنسيين.

- ازدادت الأمراض والمجاعات في الجزائر أهمها مجاعة سنة 1868.

- اتسعت حركة التبشير بقيادة لافجري (Lavigeric)

- خيبة أمل السان سيمونيين.

إذن فإسماعيل وقف من المعمرين موقفا عدائيا بأن انتقد سلوكهم وسـلوك بعض الاشتراكيين الديمقراطيين الذين تخلوا عن مبادئهم، وقد وجه هذا الانتقاد في رسالة لهوقني (Hegonnet) [1]حيث قال بما معنـاه إن انهيـار الأوضـاع في الجزائر يعود إلى تخلي السلطة الحاكمة عن مهمتها التي يـديرها الاشـتراكيون الديمقراطيون لأنهم لم يحموا العدالة الاجتماعية للأهالي و لم يدافعوا عن الحريـة بل تحالفوا مع المستغلين المعمرين مما أدى إلى استفحال أمر المعمـرين وزيـادة سيطرتهم على السلطة وعلى الصحف المحلية.

ويؤكد إسماعيل في هذه الرسالة أن الأمل ضعيف لإنقاذ الجزائـر وتحسـين وضعها الاجتماعي إلاّ إذا نهض الرأي العام الديمقراطي والاشتراكي في فرنسـا وطبق برنامجه العام الذي يؤدي إلى إصلاح الوضعية الاجتماعية لدى الأهـالي

---

1 - رسالة إسماعيل في تاريخ27 أفريل 1869 تنظر جريدة: La justice du 19 Janvier 1884

الجزائريين بعدها فقط يعلن الديمقراطيون الاشتراكيون الحقيقيـون للمعمـرين الكبار (Landlord) أننا لا نريد أن تكون الجزائر أيرلندا الفرنسية أو بولونيـا المسلمة. وفي حالة ما إذا تهاون أصحاب الحرية فإن مصير الجزائر والجزائـريين سيكون بيد المعمرين المدنيين، وتكون الخسارة أكبر.

ونتيجة لمواقفه هذه - التي ذكرنا منها القليل - تلقى إهانات كثيرة ومواقف عدائية خاصة من طرف المعمرين الذين هاجموه أكثر من مرة في الصحف؛ منها ما جاء على سبيل المثال في صحيفتي (La justice) و (Temps) فانتقده البعض في هذه الأخيرة. وعرضوا بسلوكه، ومما جاء فيها ما مفاده: نشـر "عربـان" مقالات ـــ أخيرا ـــ لا محتوى لها. يكفينا أن نضع بين أيدي رئيس التحرير ما حصل عليه "عربان" بمرسوم صدر يوم 22 جانفي 1852 من طرف لـويس نابليون الذي سمح لـ"عربان" أن يمتلك ضيعة مساحتها 318 هكتار تعد من أخصب الأراضي ومزودة بالأشجار المثمرة والمجاري المائية[1]. ثم وصفه صاحب هذا المقال بالمتنكر. وفي المقابل أشاد صاحب المقال بالمعمرين الذين قال عنهم: إنهم أشقياء ذهبوا لإحياء أرض مهملة وجرداء. ويفهم من هذا المقال تحامـل المعمرين لا على "عربان" فقط بل حتى على الحكومة الفرنسية نفسها.

---

1 - توجد هذه الضيعة بشعبة الكرم على بعد حوالي 30 كلم من قسنطينة في طريق عنابة.
تراجع جريدة: La justice du 20 février 1884

وبسقوط نابليون الثالث على يد بروسيا انهارت مطامح "عربان". عـــلاوة عما كان يعانيه من مرض عضال لهذا حصل على إجازة مرضية سنة 1870 ثم حصل على التقاعد وتفرغ إلى الكتابة في الصحف خاصة صحيفة (le débat).

وكان "عربان" على ارتباط وثيق بكثير من الأدباء والمفكرين يســاعده في ذلك إطلاعه الواسع والعميق وتشبعه بالخيال الشرقي فمن الذين كـــان علـــى اتصال بهم فيدو (Feydeau) وغوتي (Z.Gouthier). وكانت له مقالات عميقة في العقيدة الإسلامية. وفي سنة 1849 وبتعاون مع النقيب كـــاريط (Carette) ألف "عربان" كتابا قيما عن الجزائر في سلسلة الكون. وفي سنة 1861 نشر كتابه السابق الذكر: الجزائر للجزائريين. وفي سنة 1863 ألـــف كتابـــا عـــن الأهالي الجزائريين والمعمرين بعنوان (indigènes et immigrants) وقد أثار هذا الكتاب سخط المعمرين ومن بينهم النائب فارني (Warnier) والاقتصادي جيل دي فال (Jules du Val) وكتب نصا عن الجزائر في موسوعة القرن التاســـع عشر.

الخلاصــــــة: مما سبق يتأكد وأن للسان سيمونيين حضورا قويا في كل من مصر والجزائر. وأن لهم فكرا قويا أرادوا تحقيقه في الجزائر التي كانـــت الأرض الخصبة لنجاح هذا الفكر لهذا كانت مشاركتهم فاعلـــة منـــذ الأيـــام الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر. وكان للأعضاء مثل إسماعيل "عربان" تأثير كبير على السياسة الفرنسية عامة. وعلى سياسة نابليون الثالث بوجه خاص الـــذي حاول تأسيس المملكة العربية إلاّ انه فشل بسبب عوامل كثيرة. ويبقى إسماعيل

شخصية متطورة تقلبت من مسيحي إلى سان سيموني وانتهت إلى مسلم لهـذا فهو جدير بالدراسة التي تعني دراسة لفترة هامة من تاريخ الجزائر الحديث.

مصادر ومراجع معتمدة:

1. محمد طلعت عيسى، اتباع سان سيمون فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر،القاهرة 1957،.
2. نصوص مختارة (سان سيمون (ترجمة سعيد القضماني ويحي علي أديب، دمشق 1975.
3. صلاح العقاد، المغرب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط.3، 1969.
4. Archives d'Outres-mer - F/80.375 F80/373 - 1 x 1, micro N° 1 à 4.
5. Bibliothèque de l'Arsenal, catalogue (w 29-12) (w 29-10)
6. Nouchi (A), Correspondance du Dr Vital avec Urbain, Alger 1958.
7. Marcel Emerit, Les Saint-Simoniens en Algérie, Paris 1941.
8. Annie-Rey Goldzeiguer, Le royaume arabe, SNED, Alger 1977.
9. George Voisin (Urbain), L'Algérie pour les Algériens, Paris1861.
10. Valet René, L'Afrique du Nord devant le Parlement au XIXe siècle, Paris 1924
11. Temps du 31 janvier 1884.
12. La justice du 19 janvier 1884, et du 20 février 1884

Thomas Urbain l'un des derniers survivants de la célèbre phalange saint-simonienne vient de s'éteindre à Alger, après une existence singulièrement mouvementée. M. Ismaïl Urbain était parti tout jeune pour l'Egypte, après la dispersion du petit cénacle de Ménilmontant. Il y étudia à fond la langue et la civilisation arabe, et s'en éprit au point d'embrasser l'islamisme et d'épouser une musulmane; c'est alors qu'il prit le prénom d'Ismaïl. Il ouvrit même une mosquée dans laquelle il professait, la conciliation de l'Islam avec les progrès de la science moderne.

Ses prédications portèrent bientôt ombrage aux fonctionnaires qui représentaient alors la France en Egypte. M. Urbain dut quitter le Caire. Il se rendit en Algérie, où il fut admis dans le corps des interprètes militaires. Il figure au côté gauche du duc d'Aumale dans le tableau d'Horace Vernet représentant la prise de la Smala d'Abd-el-Kader (1843).

Nommé plus tard au poste de conseiller au conseil supérieur du gouvernement à Alger, il prit chaudement parti en toutes circonstances pour l'élément musulman contre l'école qui tendait à sacrifier l'intérêt indigène aux idées exclusives de colonisation par l'élément européen.

On a de lui de nombreuses études et brochures, notamment **De la tolérance dans l'Islamisme** (1848), **l'Algérie pour les Algériens** (1861), sous le pseudonyme de Georges Voisin, Indigènes et immigrants (1863).

نشر هذا الكلام عن إسماعيل أوربان في جريدة Le temps 31 جانفي 1884

وثيقة نادرة عن المؤسسات الثقافية في مدينة قسنطينة
(بداية الاحتلال الفرنسي)[1]

1 نشر هذا المقال في: المجلة التاريخية المغاربية، العدد، 87-88، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس 1997، ص-ص. 625-637.

تبادرت إلى ذهني أسئلة كثيرة وأنا أقرأ هذه الوثيقة ويمكن عرض أهمها على الشكل الآتي: ما هو الجديد من المؤسسات المذكورة في هذه الوثيقة؟ وهل يمكن معرفة عدد المؤسسات في مدينة قسنطينة قبل احتلالها؟ ما مصير بعضها غير الموجود الآن؟ ما مصير خدام تلك المؤسسات. وأضرحة ورفات مؤسسيها الصالحين التي كانت بها؟ أحاول الإجابة على هذه الأسئلة من خلال النقاط الآتية:

1. - موجز عن الحياة الاجتماعية بالشرق الجزائري وقسنطينة خاصة.
2. - **التعريف بالوثيقة.**
3. - **قيمتها التاريخية.**
4. - **نص الوثيقة**
5. - الخلاصة.

1- موجز عن الحياة الاجتماعية في الشرق الجزائري وفي مدينة قسنطينة

1-1- الحياة الثقافية.

استمر التواجد العثماني في الجزائر أكثر من ثلاثة قرون (1516-1830). وكذلك الوجود الفرنسي (1830-1962) وأثناء هذه الفترة تفاعلت ثقافات كثيرة فيما بينها داخل المجتمع الجزائري. مثلما عاشت وتعايشت أجناس وجنسيات متعددة وأنظمة سياسية مختلفة. وبالرغم من ذلك ظلت الثقافة العربية الإسلامية ضاربة إطنابها في المجتمع الجزائري، على خلاف المجتمعات

الأخرى في أمريكا واستراليا مثلا التي ذابت في ثقافات غير ثقافاتها على الرغم من أن الجزائر عرفت نفس "السيناريو" الذي عرفته تلك المجتمعات: غزو احتلال-توسع-استيطان-محاولة انفصال عن البلد الأم. والسؤال المطروح هو ما مرد ذلك؟ وهل يمكن الحديث عما إذا كان للمؤسسات العربية الإسلامية من دور في الحفاظ على مشكلات هذا المجتمع الجزائري على الرغم من ميل عدد غير قليل من الجزائريين إلى فرنسا مثلا.

1 - 1 - 1 - التعليم:

مدينة قسنطينة ذات قيمة عالية من الناحية الثقافية. يتزامن وجود المؤسسات الثقافية فيها مع بداية الفتح الإسلامي لها. أي بداية النصف الثاني من القرن الأول الهجري؛ بداية الربع الأخير من القرن السابع الميلادي. إذ اتخذت المؤسسات وسيلة للاستقرار الإسلامي والدعوة له.

ولا نعتقد أننا على خطإ إن قلنا أن الثقافة في الجزائر عامة. وفي الشرق منها بوجه خاص لم تحظ بالأهمية الكبيرة من طرف العثمانيين بمثل ما حظيت به بقية القطاعات الأخرى وفي مقدمتها القطاع العسكري. وهذا تمشيا مع ظروف العصر التي كانت تتطلب الاعتماد على القوة الحربية. ولانتشار الطرقية والدروشة في البلاد العربية الإسلامية. وقد يكون لشعور العثمانيين بأنهم غرباء عن هذه البلاد. ولهذا اعتمدت الثقافة العربية الإسلامية في تطورها النسبي والعددي على ذاتيتها وعلى المجتمع الإسلامي الجزائري انطلاقا من المؤسسات الثقافية المحصورة في المساجد والمدارس والزوايا الأمر الذي دفع حمدان بن عثمان خوجة إلى القول: إن طاقات فكرية كانت تكمن في أوساط

المجتمع الجزائري. لهذا اعتنوا بالعلوم والآداب فكان منهم الشعراء وأساتذة في التاريخ ومشرعون[1]. وكانت المهام العلمية والدينية في يد الحضر-(الأعيان (من الجزائريين. وذهبت إيفون توران في عرضها للحياة الثقافية التعليمية أن مدارس كثيرة كانت منتشرة في الجزائر العثمانية وكان اهتمام الجزائريين كبيرا بالمساجد والمدارس والزوايا وبالكتب والمكتبات والوقف والرحلات العلمية إلى خارج الجزائر.

كانت هذه المؤسسات ثقافية بمعنى الكلمة؛ إذ بالإضافة إلى دورها العلمي والديني كان لها دور اجتماعي وسياسي في المجتمع الجزائري. فهي ذات سلطة روحية ودينية ومدنية قضائية. ولها من الولاء الشعبي ما يضاهي بل يفوق الولاء لنظام الحكم القائم. فهي كانت نعمة لقيامها بدور فض النزاعات والحفاظ على التماسك الاجتماعي ونشر الأمن وإطعام المعوزين من جهة. وكانت نقمة بنشرها للشعوذة والخرافة وتشجيعها على العلوم التقليدية الشرعية.

وكانت مدينة قسنطينة ثاني مدينة جزائرية بعد الجزائر العاصمة تضاهي فاس وتلمسان والقاهرة من حيث العلماء والتعليم. "وكانت مساجدها وزواياها وبيوتها الكبيرة تعج بالمكتبات التي تحتوي على كتب المشارقة والأندلسيين. بالإضافة إلى التأليف المحلية"[2] وقد أهلها موقعها الوسطي لإقليم

1- Hamdan (k.), le miroir .p. 73

2 - أبو القاسم سعد الله، القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط.2، الجزائر 1985، ص. 32.

الشرق الجزائري وموقعها الجغرافي الذي جعل منها بوابة من وإلى المشـــرق إلى مكة والمدينة المنورة. بجانب ما كانت عليه من صلة بالأوروبيين الذين كـــانوا يحظون بامتيازات صيد المرجان. ناهيك عما عرفته المدينة مـــن نقلـــة نوعيـــة استثنائية عهد صالح باي. وتفردها بموقع متميز جعلـــها قبلـــة الأذواق الفنيـــة والفكرية من العلماء والمغامرين فكانت موضوع إلهام لأدباء كثيرين [1]. وقربهـــا من تونس التي تعد قلعة العلم والعلماء.

وكانت أسر كثيرة تولت مهمة بناء المؤسسات والتدريس بها للعلوم التقليدية كالفقه واللغة.والحديث والأدب والحساب. وتذكر هذه الوثيقة أهم الأسر التي قامت بهذا الدور منها أولاد ابن الشريف وأولاد نعمان وأولاد زكـــري وأولاد كحك علي وأولاد سيدي مالك. بالإضافة إلى الأسر المعروفة مثل ابن بـــاديس وابن الفكون وابن جلول وابن البجاوي وابن نعمون وباش تارزي. وقد تخرج

---

1 - من الشعراء الذين ألهموا بمدينة قسنطينة ووصفوها محمد الشاذلي الذي ينظم قصيدة لم تذكر في مؤلف سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق. وذكرت في:

- Charles st-Calbre, "Constantine et quelques auteurs arabes constantinois ". in. R.A.année, 1913, p. 89.

قال محمد الشاذلي:

كم ردت ملوك الغرب في نحرهم ... وصفت تونس من مناهل الحنظل

لأهلـــها خـــلق فـــي الحســـن فـــايقة ... نالوا بها شرف الثناء الـــمكتمـــل

كم فـــيها من عالـــم لعلمـــه ضربت ... من الآفاق أكـــباد الخـــيل والإبـــل

وكـــم بها مـــن ولي عارف ظـــاهـــر ... إليه المفزع في الشدات والوجل

الكثير من العلماء من هذه المؤسسات. وكان لهم الشأن الكبير في تكوين العوامل المحركة للحياة بمختلف صورها في مدينة قسنطينة وخارجها. وحتى في خارج الجزائر سواء في المغرب أم في المشرق.

1- 2- الحياة الاقتصادية:

من المدن الكثيرة الهامة في إقليم الشرق الجزائري كانت مدينة عنابة وقسنطينة. وكانت عنابة منطقة فلاحية وتجارية هامة مشهورة بأراضيها الخصبة وبمينائها الثاني بعد ميناء الجزائر العاصمة. حيث كان أكبر الموانئ المصدرة للمواد التجارية ببايلك الشرق الجزائري. وكان على رأس تلك المواد الصوف التي بلغت نهاية القرن 18 حوالي 16 ألف قنطار. إذ كان ثمن القنطار 16 قرشا. زيادة على ما تم من تصدير للجلود الذي بلغ خلال الفترة نفسها حوالي 550 ألف قطعة من جلود البقر. ومن الحبوب تم تصدير حوالي 100 ألف صاع. بالإضافة إلى مواد أخرى كالحديد والنحاس. وكان النظام العثماني يحتكر التجارة بهذا الميناء. ويتعامل مع الشركات الأجنبية وفي مقدمتها الشركة الملكية الإفريقية الفرنسية مقابل رسوم جمركية[1]. وكان لقسنطينة الدور الأساسي في العملية التجارية هذه. إذ أنها كانت همزة وصل بين عملية التصدير والاستيراد بين الصحراء والساحل.

---

1 -ناصر الدين، سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص.214 وما بعدها. للمزيد من المعلومات حول الحياة الاقتصادية يراجع: محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1972.

1 -3 - السكان بالشرق الجزائري:

من الصعوبة بمكان تحديد عدد سكان الإقليم بفعل قلة المصـادر واهتمـام الدارسين للهياكل العليا كالجهاز الإداري الحاكم دون اهتمـامهم بالهياكـل السفلي التي كانت أساس الحياة الاجتماعية بمختلف صورها. وبالرغم من قلـة المصادر التي تتحدث عن سكان الإقليم التي تبدو لنا فيها مبالغة حيث ذهـب بليسيه إلى القول إن عدد سكان الشرق الجزائري أواخر العهد العثماني مليون ونصف المليون [1]. في حين قال حسونة الدغيس إن سكان الشرق بلـغ أربعـة ملايين وثمان مائة ألف[2] بينما ذهب ياكونو إلى القول إن عدد سكان الجزائـر كلها لا يتعدى ثلاثة ملايين[3] على خلاف حمدان خوجة الذي قـال إن عـدد سكان الجزائر كلها عشرة ملايين نسمة[4]. ومن خلال هذه الأرقام المـذكورة وغيرها توصل الأستاذ عبد الجليل التميمي[5] ببحثه إلى نتيجـة هامـة وأراهـا مطابقة للواقع آنذاك وتقضي بأن عدد سكان الشرق الجزائري كـان حـوالي مليون ومائة وواحد وثلاثين ألف نسمة [6] وهو العدد الموزع على سكان الريف

1- Pellissier (R.de), Annales algériennes, Paris 1854, P-P.288-289.

2- Temimi (A.), le beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey, pub. de la Revue d'histoire maghrébine, Tunis 1987, P.57.

3- Yacono (x.)," peut- évaluer la population de l Algérie vers 1830". in. R.A. année 1954, P-P.277-307.

4- Hamdan (k.), Le miroir, P.320.

5- Temimi, op.cit., P-P.56-57.

6 - المرجع نفسه، ص.58.

والمدينة، وكانت المدينة لا يسكنها أكثر من 45 ألـــف نســـمة. وعلـــى رأي نوشي[1] أن عدد سكان المدينة لا يتعدى نسبة 10 %و20 %بناء على رأي أحد المعاصرين لأواخر العهد العثماني[2]. في حين ذهب ســعيدوني إلى القـــول: "لم يتجاوز سكان المدن والحواضر (في الجزائر العاصمة) في أحسن الأحوال 6%"[3] كما ذهب بعض الدارسين إلى اعتبار نسبة 5% إلى 10%، هي نسبة ســـكان المدن الجزائرية كلها[4].

1-3-1 - سكان المدينة:

وكانت قسنطينة عاصمة البايلك. وقد تضاربت الإحصاءات التي قـــدمت حول عدد سكانها فحمدان بن أمين السكة حدد سكانها ما بـــين 25 إلى 30 ألف[5]. في حين قال عنها كامل باي مبعوث السلطان العثماني عام 1836 إنها مدينة عظيمة بها 7000 مسكن يقطنها حوالي ألف شخص[6]. وذكر باناني أن

1- Noushi (A.). « sur le féodalisme », in. Cahier du C.E.R.M. ed. sociale, 1974 P.182..

2 - تقرير كامل باي إلى السلطان العثماني، جوان 1836 (نقلاعن: Temimi . Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey)

3 - ناصر الدين سعيدوني، دراسات. ص.97.

4 - ينظر عبد اللطيف بن أشنهو، تكون التخلف في الجزائر ش.و.ن.ت الجزائر 1979، ص.40.

16 - Yacono (x.), " la régence d 'Alger en 1830", in. R.O.M.M. No. 2, P.274 .

6 - نقلا عن: Temimi (A).op.cit., P.5 .

سكان مدينة قسنطينة بلغ مائة ألف نسمة[1]. في حين حدد كل من رامبار (Raimbert) وباون (Bown) عدد سكان مدينة قسنطينة ما بين 40 إلى 45 ألف نسمة[2]. وروزي بـ 15 ألف[3]. في حين قدرت مصلحة الهندسة العسكرية الفرنسية عدد سكان مدينة قسنطينة قبل احتلالها 40.000 نسمة. وبعد الاحتلال نزل العدد إلى النصف. وأن نصف هذا العدد من القبائل والربع من الأعيان. والباقي من الأتراك والكراغلة واليهود. وأن الثروة كانت بيد الأعيان والأتراك[4]. علما وأن مساحة المدينة قبل 1837 كانت 30 هكتارا حسب بعض الدارسين الفرنسيين[5]. وإننا نرجح العدد ما بين 40 إلى 45 ألف تمشيا مع مساحة المدينة ووفقا لعدد المساكن البالغ 7000 حسب ما يشير إليه

1- Pananti, relation d'un séjour à Algertr. de l'Anglais par: Blanquierre, les normands, Paris 1820, P.109.

2 - المرجع نفسه، ص.57.

3- Rozet, Alger, 2 éd. Bouslama, Tunis 1980.P.19.

4 مذكرة عن قسنطينة في تاريخ1838/1/5. A.M.G..H 266 وأن عدد اليهود بهذه المدينة كان 1000. حسب ما هو مذكور في A.M.G., H 46 وهو رقم غير صحيح لأن مراجع كثيرة تقول بأكثر من هذا. إذ ذهب أبو القاسم سعد الله إلى أن عدد اليهود وصل في مدينة قسنطينة إلى 5000 ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1985.

5- Chivé (J.), et, Bertier (A.), l'évolution urbaine de Constantine 1837-1937, Braham, Constantine 1937.

تقرير كامل باي. وبناء على متوسط عدد الأفراد من 6 في الأسـرة الواحـدة وبالتالي في المسكن الواحد.

2 - التعريف بالوثيقة:

عثرنا على هذه الوثيقة أثناء قراءتنا لمذكرات ديفو(Desvaux) المحفوظة في مكتبة متحف أنفاليد (Les invalides) بباريس. وتتكون من خمس صـفحات من الحجم المتوسط مكتوبة بخط مغربي، هذه الصفحات لم تكن ملصقة في أحد الأجزاء من مذكرات ديفو المكتوبة بالفرنسية [1]. تناولت هذه الوثيقـة عـدد المؤسسات الثقافية، من مساجد وزوايا كانت في مدينة قسنطينة وخارجها التي تحول عدد منها إلى خدمات لصالح السلطة الفرنسية. بالإضافة إلى قائمة بأسماء من يحق لهم التدريس بهذه المؤسسات. ومن غير المستبعد أن يكون كاتب هذه

---

1 - مذكرات ديفو ذات قيمة تاريخية عالية تتكون من 21 جزءا. كتبها خلال نصف قرن (1831-1884). تبين الأجزاء من 4 إلى 8 نشاطه في الجزائر حيث كان له دور هام في السياسة الفرنسية في الجزائر إذ تولى مناصب فاعلة منها منصب الحاكم لباتنة (1852-1855) ومنصب الحاكم لمدينة قسنطينة (1859-1864). ثم منصب قائد الأركان ونائب الحاكم العام في الجزائر منذ عام 1865. وكان من الذين أولوا عناية خاصة باستثمار المناجم والغابات في القالة. وكان من أنصار تطبيق سياسة التعليم الفرنسي العربي. وكان يجيد اللغة العربية ولغات أخرى. سافر إلى بلاد كثيرة منها: مصر وإيطاليا واليونان وتركيا وأوروبا الوسطى. للمزيد من المعلومات، يراجع:

- Marcel (E.)," une source pour l histoire du second empire: les souvenirs du général Desvaux " IN, Revue d'Histoire moderne et contemporaine, t. 21, jan-mars,1974, Armand colin, Paris 1974, P-P.27-32.
- Peyronnet (R.), Livre d'Or des Officiers des affaires indigènes, t.2, Alger 1930, P. 144.

الوثيقة ليس جزائريا وهذا لعدم كتابة أسماء المؤسسات بالحرف الصحيح وذكر أسماء غير عربية مثل: "بلاصة" و"مادام". وبالمقارنة مع وثائق أخـرى تكـون الوثيقة كتبت بعد احتلال مدينة قسنطينة بسنوات.

3- قيمتها التاريخية:

لهذه الوثيقة قيمة تاريخية، خاصة فيما يتعلق بالمؤسسات الثقافية التي عرفتها مدينة قسنطينة وخارجها. كما وتعرفنا بمصير بعضها الذي تحول إلى ملكيـات فرنسية. كما أمدتنا هذه الوثيقة بأسماء العلماء الذين كان يحق لهم التدريس في هذه المؤسسات. وتذكر هذه الوثيقة أن عدد المؤسسات الثقافيـة في مدينـة قسنطينة كان 80 مؤسسة. منها 19 كان قـد اسـتولى عليهـا الفرنسـيون واستخدموها لصالح الاحتلال سواء لإيواء الجنود مثلما حدث لسيدي الـدب وسيدي علي بن مخلوف وزاوية صباط دار الباي أم للمؤونة في جامع رحبـة الصوف أم للسكن الخاص مثلما حصل لسيدي الزواغي بالقصبة الذي سكنته السيدة زاقوا أم سيدي المدلسي الذي سكنته السيدة مور أم لتأسيس الساحات العامة مثلما وقع لسيدي مسلم وسيدي فرغان وسيدي الوراد وزاويـة بـاب الواد.

كما تعرفنا هذه الوثيقة كذلك على ملكية بعض الأسر لمؤسسـات ثقافيـة مثلما هو الحال لدى أسرة كل من: أولاد بن جلول التي كانت بيدها زاويتـا السواري والخراشفين وأولاد سيدي مالك بحوزتها سيدي عبد المؤمن وسـيدي هجام لكل من أولاد ابن زكري وأولاد كحلك علي وسيدي قموش وسـيدي بوشداد لأولاد ابن باديس وسيدي بوعبد الله الشريف لأولاد ابـن الشـريف

وزاوية الخرازين لأولاد الفقون وزاوية نعمان في يد ولد نعمان ومن جهة أخرى تؤكد هذه الوثيقة أيضا أن مؤسسات ثقافية كانت خارج قسنطينة بلغت 20. ففي فرجيوة كانت 4 جوامع (حوالي 85 كلم عن قسنطينة) وبالعلمة 2 (80 كلم عن قسنطينة) و1 في كل من الرواشد (حوالي 70 كلم عن قسنطينة) وبومرزوق (5 كلم عن قسنطينة) وأولاد سلام (حوالي 50 كلم عن قسنطينة) والهرية (حوالي 25 كلم عن قسنطينة) وأولاد رحمون (حوالي 30 كلم عن قسنطينة) وهناك قائمة بأسماء من لهم القدرة على التدريس وعددهم 17 ومنهم القاضيان والمفتيان والطيب بن الكيرد ومحمد بن عزوز والشيخ الشاذلي.

أما ذكر الشيخ الشاذلي فإن المقصود به هو محمد بن عيسى الشاذلي (1797-1877) المشهور بالشاذلي القسنطيني[1] الذي هو من قبيلة البوازيد غادر قسنطينة بعد احتلالها ثم عاد إليها عام 1844 حيث عين قاضيا عليها. وتولى ابنه محمود منصب القضاء في مدينة سطيف وفقا للسياسة الفرنسية التي شرعت في تطبيقها ما بين سنتي 1848 إلى 1858. ووظفت على إدارة المساجد المدرسين والأئمة والمؤذنين والوكلاء والحراس وقراء القرآن.

---

1 يراجع أبو القاسم سعد الله، القاضي الأديب الشاذلي، المرجع السابق.

ومن المؤسسات الجديدة التي تضيفها هذه الوثيقة و لم تذكرها أهم المراجع [1] هي 19 مؤسسة وتبدأ كلها بلقب سيدي باستثناء زاوية السواري وهي: سيدي البيازري ومسلم والمدلسي والزواغي وفلّيوا والوارد وقنيش وبومن وحيدان وشقفة ياسمين وكرامة وابن عين الناس [2] ومحمد السزواوي وفرغان وهجام والخراشفين والخرازين. وبالإضافة إلى 20 مؤسسة كانت متواجدة خارج مدينة قسنطينة وبفرجيوة وعددها 4 و لم تذكر أسماؤها. وكذلك 22 بالعلمة وغيرها مثلما ذكرنا. ولا يعني هذا أن الوثيقة ذكرت كل المؤسسات بل أن مؤسسات أخرى لم تذكرها وذكرتها مراجع أخرى وبلغت 15 وهي: جامع حسين باي وسيدي مغرف وسيدي فليسة وسيدي بركات العروسي وسيدي بوقصيعة وسيدي الهواري (ذكر في الوثيقة بالحواري (الغسيل وعبد القادر وفرقان وزاوية باش تارزي وقبة البشير وستي فريخة سيدي سليمان وسيدي محمد الغراب وسيدي المسيد [3]. بناء على هذا تكون المؤسسات الثقافية

---

1 - محمد المهدي،بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، تاريخ قسنطينة، البعث، قسنطينة، الجزائر 1980، ص.479. اعتمدنا هذا المرجع أساسا نظرا لما يتضمنه من معلومات هامة، ولما عليه مؤلفه من دراية عميقة بالمؤسسات الثقافية بهذه المدينة. بحكم أنه من أبنائها القدماء ومن طلاب هذه المؤسسات.

2 - وهو المذكور في كتاب أم الحواضر، ص.250، بسيدي عيناس، وهو الأمر الذي نرجح خطأ نطقه، من طرف محمد المهدي. لأن صاحب هذا الكتاب ترجم الاسم من اللغة الفرنسية.

3- Charles St-Calbre, "Constantine et quelques auteurs arabes constantinois" in. R.A. année 1913, P.89

التي عرفتها مدينة قسنطينة حوالي 94 (67+12+15) قبيل مجيء الفرنسيين. بإضافة الـ20 مؤسسة خارج مدينة قسنطينة والمذكورة في الوثيقة. يعني هذا أن مجموع المؤسسات بها لا تقل على 114. لهذا الرقم أكثر من دلالة خاصة إذا علمنا من خلال ما تذكره بعض المراجع أن مساحة المدينة كانت حوالي 30 هكتارا. وأن عدد السكان كان ما بين الـ 40 و45 ألف نسمة مثلما مر بنا. يعني هذا أن لكل 400 فرد مؤسسة ثقافية.

لقد اندثر الكثير من تلك المؤسسات بفعل عوامل كثيرة كان على رأسها السياسة الفرنسية التي أقامت مشاريع عمرانية على أنقاضها ونذكر من تلك المؤسسات زاوية التلمساني التي حولت مقرا للهندسة العسكرية ثم إلى مركز تبشيري للراهبات وبدءا من عام 1880 صار بحوزة اليهود. وسيدي بومعزة الذي كان يلقي فيه الشيخ ابن باديس دروسا قبل تأسيس جمعية التربية والتعليم.وحول الآن إلى مدرسة أساسية هي مدرسة زغدود التي ألحق بها جامع سيدي قيس وتسمى زاوية العمارية. من المؤسسات المندثرة أيضا عمر الوزان كانت مكان المسرح البلدي الآن. وجامع سيدي عبد الرحمن المناطقي الذي حولته السلطة الفرنسية إلى بنايات سكنية. وسيدي الدب الذي بني على أرضه البريد المركزي للمدينة. بالإضافة إلى جامع رحبة الصوف وابن عين الناس وعلي الطنجي وبوشداد والهواري وعلي القفصي وإبراهيم الراشدي ومفرج والنقاش وبركات العروسي وبوقصيعة والجليس والصفار وخليل والغسيل والجوزة وستي فريخة وفرقان عبد القادر وقبة البشير وزاوية ابن رضوان هذه الأخيرة كانت مقر المحكمة الإباضية وهي الآن بيد الإباضيين الجزائريين.

والسؤال المطروح هو: ما مصير عمال وأضرحة هذه المؤسسات؟ تعاملت السلطة الفرنسية مع هذه المؤسسات بطرق أهمها:

-استبقاء بعضها وتعيين موظفين لها مقابل رواتب.

- بيع البعض منها بعد نقل رفات الأضرحة منها إلى المقبرة الإسلامية. مثلما حدث لزاوية ابن رضوان التي كان بها تابوت قاضي بيت المال محمد بن رضوان المتوفى عام 1792. وبقرار بلدي حولت إلى محكمة إباضية. أو حولت من مؤسسة إلى أخرى. مثلما حدث لرفات سيدي علي بن مخلوف الذي نقل إلى الجامع الأربعين شريفا.

- هدم الباقي وإقامة المشاريع العمرانية حيث قسمت المدينة بدءا من عام 1844 إلى حيين الأول خاص بالجزائريين والثاني بالأوروبيين واليهود. وكان أول حي هو المعروف بسان جون. شرع في بناء مقر الولاية عام 1849. وتأسست أول مدرسة عربية - فرنسية عام 1850. ثم شرع في مد جسر القنطرة وفي بناء المسرح. ومد السكة الحديدية من قسنطينة إلى سكيكدة. فتطور العمران بسرعة. وبمرور قرن وصل عدد سكان المدينة 114.000 نسمة. على مساحة 239 هكتار (185 هكتار. للأوربيين.42 هكتار. للجزائريين 12 هكتار لليهود وبلغ عدد العمارات بالمدينة 4000. بجانب 80 كلم من الشوارع المعبدة.

4 - نص الوثيقة:

الصفحة الأولى

الحمد لله

بيان الجوامع الذي بيد الفرنصيص أول ذلك

1- سيد البيازري.

2- جامع الجوزة.

3- سيد بوعنابة (هو زاوية عيساوة).

4- سيد الدهان.

5 سيد مسلم، بلاصة (ساحة ((une place)

6 - سيد فرغان، بلاصة.

7 جامع رحبة الصوف، فيه الزرع.

8 - سيد علي بن مخلوف، فيه السرسور (الجند).

9 سيد عبد الهادي، سحن (هو سحن المدينة الآن

10-سيد راشد، مقفول (مغلق).

11 - سيد يحي الفصيلي، خراب.

12 سيد المدلسي في يد مدام مور.

13 سيد الزواغي في القصبة، في يد مدام زاقوا.

14 - جامع القصبة، خراب.

15سيد فلّيوا الكبير، خراب.

16زاويت صباط (ممر) دار الباي، في يد الجيني

---

1 - ما هو مكتوب بين قوسين غير وارد في نص الوثيقة.

(الهندسة العسكرية(génie).
17- زاويت (كذا) باب الواد، بلاصة.
18- سيد الدب في يد اليوطنة متاع السرسور (ضابط الجند).
19سيد الوراد، بلاصة.

الصفحة الثانية

الحمد لله الجوامع الذي هما ملك الناس أول ذلك.

جامع الأخضر - سيد إبراهيم الراشدي- سيد الكتاني - سيد بومعزة- الجامع الكبير- الأربعون شريفا(نقل إليه رفات سيد علي بن مخلوف)[1]- سيد عبد الرحمن المناتقي (المناطقي)- سيد الرماح- سيد علي القفصي - سيد الجليس- زاويت (كذا) التلمساني - سيد فتح الله- زاويت الصفار - سيد عبد الملك- سيد قنيش - سيد كرامه- سيد يومن - سيد فليّوا- سيد محمد بن ميمون(مدفون هنا محمد ميموني) - سيد محمد النجار- سيد محمد الشريف - سيد علي الطنجي- سيد الشاذلي - مسجد حفصة- زاويت رضوان - سيد بوعنابة-زاويت حنصالة (هي زاوية النجارين) - سيد بوراغدة- سيد قيس - سيد عمر الوزان- سيد حيدان - سيد بن عين الناس- سيد شقفة - الغرابة متاع سيد علي بن مخلوف- سيد نمديل - الغرابة متاع رحبة الصوف- سيد

1 - ما بين قوسين غير وارد في نص الوثيقة.

عبد الرحمن القروي - دار الحنفي القديمة- جامع خليل - سيد الفوال- سيد ياسمين - سيد مفرج- سيد النقاش - المدرسة متاع جامع الأخضر- سيد الحواري - سيد عفان المدرسة متاع سيدي الكتاني - سيد ميمون- سيد الدرار.

جامع الاخضر
سيد الكتاني
الجامع الكبير
سيد عبد الرحمن المناني
سيد علي الفيطي
زاوية التلمساني
سيد الصقار
سيد فنيش
سيد بوعش
سيد محرز بيمون
سيد محمد الشريف
سيد الشاذلي
زاوية رضوان
زاوية حنصالة
سيد قيس
سيد حيدان
سيد شقعة
سيد محمد بلال
سيد عبد الرحمن القروي
جامع خليل
سيد ياسمين
سيد النقاش
سيد الحواري
المدرسة متاع سيد الكتاني

سيد ابراهيم الراشدي
سيد بو امعزة
الاربعون شي جبل
سيد الرصاع
سيد الجليبي
سيد منجي اليمر
سيد ميمون
سيد عبد الملك
سيد كرامة
سيد مليتوا
سيد محمد النجار
سيد علي الطيفي
مسجد حججمة
سيد بو اخنابة
سيد بو ارغدة
سيد احمد الوزان
سيد بن عيسى الناصر
القرابة متاع سيد علي بن مخلوف
القرابة متاع رحبة الصوف
دار القاضي الحنفي القديمة
سيد الفوال
سيد مفرج
المدرسة متاع الجامع الاخضر
سيد عفان
سيد الدرار

الصفحة الثالثة

الحمد لله بيان الجوامع الذي هما ملك الناس أول ذلك

1. زاويت السواري لأولاد بن حلول
2. زاويت الخراشفين كذلك.
3. سيد عبد المومن لأولاد سيدي مالك.
4. سيد هجام لأولاد بن زكري وأولاد بن كحك علي.
5. سيد قموش لأولاد بن باديس.
6. سيد أبوعبد الله الشريف لأولاد بن الشريف.
7. سيد بوشداد لأولاد بن باديس.
8. زاويت الخرازين لأولاد الفقون.
9. سيد محمد ازواو.
10. زاويت بن نعمون
11. زاويت بن عبد الرحمن
12. زاويت نعمان في يد ولد نعمان

[illegible] بيان الجوامع الذي هما ملك الناس اول ذلك
زاويت السواري لاولاد بن حلول
زاويت الخراشفين كذلك
سيد عبد المومن لاولاد سيدي مالك
سيد هجام لاولاد بن زكري واولاد بن كحك علي
سيد قموش لاولاد بن باديس
سيد ابو عبد الله الشريف لاولاد بن الشريف
سيد بوشداد لاولاد بن باديس
زاويت الخرازين لاولاد الفقون
سيد محمد ازواو
زاويت بن نعمون
زاويت بن عبد الرحمن
زاويت نعمان في يد ولد نعمان

الصفحة الرابعة

الحمد لله بيان الجوامع الذي هما ملك الناس أول ذلك

1- جامع الرواشد وبولايان	1
2- جوامع فرجيوة	4
3- سيد سعدون	1
4- سيد علي العريان	1
5- جوامع العلمة	2
6- جامع المغلّسة	1
7- جامع المرابط محمد في بومرزوق	1
8- جامع أولاد سلام متاع بكيكيه	1
9- جامع الصالح في الهرية	1
10- جامع الحباسي (الجباسي؟)	1
11-جامع سيد معمر	1
12-سيد المبروك	1
13- جامع أولاد بن وادفل عند أولاد رحمون	1
14- المجذوب	1
15- جامع بن بغريش	1
16-سيد أحمد الزواوي	1

جامع الرواشد وبولايان	١
جوامع برجيـــوه	٤
سيد سعـــدون	١
سيد علي العريـان	١
جوامع العلمة	٢
جامع المغلسة	١
جامع اولاد سلام متاع بكيكيه	١
جامع المرابط محمد بومرزوق	١
جامع سيد الصالح في الهريه	١
جامع الحباسي	١
جامع سيد معمر	١
سيد المبروك	١
جامع اولاد بن وادفل عند اولاد رحمون	١
المجذوب	١
جامع بن بغريش	١
سيد احمد الزواوي	١

الصفحة الخامسة

الحمد لله بيان الطلبة الذين يقدرون على التدريس أول ذلك

2- القاضيان

1-الشيخ الشاذلي

2- المفتيان

1- عبد الهادي

1- الطيب بن الكيرد

1- علي الوحيشي

1- محمد بن عزوز

1- أحمد بوقرانة

1- المصري

1- الشريف بن شريط

1- إبراهيم بن البشات في الحج

1- محمد الصغير بن سلطان.في الحج

1- سليمان بن صاردوا

1- العربي الشطاب

1- محمد بن يحيا

بيان الطلبة الذين يقدرون على التدريس أول ذ

م القاضيان

1 الشيخ الشاذلي

م المفتيان

1 السيد عبد الهادي

1 السيد الطيب بن الكيرد

1 السيد علي الوحيشي

1 السيد محمد بن عزوز

1 السيد احمد بوقرانة

1 السيد المصري

1 السيد الشريف بن شريط

1 السيد ابراهيم بن البشات في الحج

1 السيد محمد الصغير بن سلطان في الحج

1 السيد سليمان بن صاردوا

1 السيد العربي الشطاب

1 السيد محمد بن يحيى

17 :

5 - الخلاصة مما تقدم نخلص إلى القول إن قسنطينة كانت أواخر العهد العثماني زاخرة بمؤسسات ثقافية بلغت 114 مؤسسة. وقدرت مساحة المدينة بـ 35 هكتارا. وكذلك بمجموع السكان بها على الراجح - كان ما بين 40 إلى 45 ألف نسمة. وقد بينت هذه الوثيقة النادرة أن أسرا كثيرة كانت بيدها مؤسسات ثقافية. مثلما أضافت أسماء مؤسسات جديدة لم تذكرها مراجع أخرى. في حين تغافلت عن ذكر البعض الآخر. وأكدت لنا مصير بعض المؤسسات التي تحولت لصالح الاحتلال الفرنسي. وأسماء بعض المدرسين بهذه المدينة.

6 - **ومصادر مراجع معتمدة:**

1. أبو العباس، بن قنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق الشاذلي النيفر، وعبد الحميد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس 1968.
2. أبو العباس تقي الدين، أحمد بن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دمشق 1966.
3. أبو محمد بن علي بن أحمد بن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج. 4، القاهرة 1899.
4. أبو دينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق محمد الشمام، المكتبة العتيقة، تونس 1961.
5. أبو عبد الله، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج. 1، دار صادر، بيروت 1957.

6. أبوا لقاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1985.

7. -، القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، المؤسسة الوطنية للكتـــاب، ط.2 الجزائر 1985.

8. -، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، المنظمة العربية للتربيـــة والثقافـــة، القاهرة 1976.

9. أحمد صادق سعد، تحول التكوين المصري من النمط الآسيوي إلى الـــنمط الرأسمالي، طـ 1، دار الحداثة، بيروت 1981

10. أحمد باي، مذكرات أحمد باي، ترجمة محمد العربي، الـــزبيري، الشـــركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1973.

11. إسماعيل، الكيلاني، فصل الدين عن الدولة، ط. 2، المكتـــب الإســـلامي، بيروت، 1987.

12. إسماعيل سفر، وعارف دليلة، تاريخ الأفكار الاقتصادية، ط. 1، منشورات جامعة حلب، سوريا 1977.

13. صالح، العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة، تحقيـــق يحي بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1991.

14. جميلة، معاشي، الأسر المحلية الحاكمة ببايلك الشرق، أطروحة ماجســـتير، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة،الجزائر 1981.

15. خليل، أحمد خليل، العرب والقيادة، ط. 1، دار الحداثة، بيروت 1981.

16. روز، نتال، وبودين (ب)، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كـــرم، ط. 5، دار الطليعة، بيروت 1985.
17. حسين ملحم، النظرية العامة للدولة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائـــر 1977.
18. الحسين، بن محمد الورتيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق ونشر محمد بن أبي شنب، مطبعة بيير فونتانا، الجزائر 1908.
19. عبد اللطيف، بن اشنهو، تكون التخلف في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979.
20. -عدي، الهواري، الاستعمار الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الله جوزيـــف، ط. 1، دار الحداثة، بيروت 1983.
21. عبد القادر، جغلول، تاريخ الجزائر الحديث، ترجمة فيصل عبـــاس، ط. 2، دار الحداثة، بيروت 1982.
22. -فندلين، شلوصر، قسنطينة أيام الحاج أحمد بـــاي، المؤسســـة الوطنيـــة للكتاب، الجزائر 1980.
23. -كلود، رافستاني، "عناصر لنظرية في الحدود"، ديوجين، العدد 78، مركز مطبوعات اليونيسكو، القاهرة 1988.
24. -مبارك الميلي، تاريخ الجزائر القدم والحديث، ج، 3، مكتبـــة النهضـــة الجزائرية، الجزائر 1964
25. -محمد المهدي،بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضـــر، تاريخ قسنطينة، البعث، قسنطينة، الجزائر.1980

26. -محمد عابد، الجابري، وجهة نظر في إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت1992.

27. - محمد العربي،الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1972.

28. -ناصر الدين، سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1985

29. - "، النظام المالي في الجزائر (1800 - 1830)

30. "، وضعية عشائر المخزن الاجتماعية والآثار التي ترتبت عليها "، المجلة التاريخية المغربية، عدد 7، 8، تونس 1977، ص-ص. 69 - 77.

31. - Archive du ministère de la guerre, H226.
32. - , H 46.
33. - Archives d 'Outr - Mer, F80 / 549.
34. - mémoires de Desvaux, M 737ý, Bib. des invalides, Paris.
35. - Ali) B.H.), souvenir d un voyage d'Alger à Constantine, tr. de Saulcy, Paris 1836.
36. - Abd El ghani) M.), la paysannerie algérienne face à la colonisation, S.N.E.D. Algérie, 1973
37. - Ahmed (N.), "les ordres religieux et la conquête française" in. Revue algérienne des sciences juridiques économiques et politiques, vol. 1, no. 4, Algérie 1972.
38. - André) H.), institutions politiques et droit constitutionnel Paris 1972.
39. - Bache) E.L), " de la propriété arabe en Algérie avant 1830 " in. Revue algérienne et coloniale, t. 3, 1860.
40. - Chivé (J.), et, Bertier (A.), l'évolution urbaine de Constantine 1837-1937, Braham, Constantine, 1937.

41. - Charles St-Calbre, " Constantine et quelques auteurs arabes constantinois ", in. R.A. année 1913 p-p. 70-95.
42. - Dahmani) B.), les origines du sous développement en Algérie, thèse de 3 e cycle, inst. des csces. Sociales, uni. d'Oran, Algérie 1981.
43. - Dardour (H.), Annaba 25 siècle de vie quotidienne et de lutte, S.N.E.D. Algérie, 1982
44. - Devoulx) A.), notice sur les corporations religieuses d'Alger, 1912.
45. - Esquer) G.), correspondance de Duc de Rovigo, t. 2 Alger, 1920.
46. - Essyautier, le statut réel français en Algérie au législation jurisprudence sur la propriété foncière depuis 1830 à la loi du 28 avril 1887, Alger, 1887.
47. - Esterchazy) W.), domination turque dans l ancienne régence d'Alger, Gousslin, Paris 1840.
48. - Fillias) A.), notice sur les produits maritimes du littoral algérien, Cursah, Alger, 1878.
49. - Féraud (ch.), "ferdjioua et zouar a " in.R.A année 1878, p - p. 5 - 25.
50. - , " les Hrar, seingeur des Hanancha ", in. R.A. année 1874.
51. - , le Sahara de Constantine.
52. - , notice historique sur Ouled Abd ennour, Armolet, Constantine, 1864.
53. , " Notice sur Tebessa ", in. R.A. année 1874.
54. - Gouvion) m.), et, Edouard, Kitab Ayan El maghariba, Alger, 1920.
55. - Hamdan (k.), le miroir, tr. par: H.D. Goetshy, Paris 18
56. - Julien) CH. A.) Hist. de l'Algérie contemporaine, P. U.F. Paris 1964.

57. Gallissot (R.), " féodalité et mode de production féodal: de la France au Maghreb précolonial " in. sur le féodalisme, C.E.R.M. Paris 1971.

58. - Larcher,) E.), traité élémentaire de législation algérienne, 3e édi. Arthur (R.), Paris 1923

59. Laila (B.), mythe d origine et structures tribales dans le Constantinois sous la domination turque, thèse de 3 e cycle, Aix, France, 1984.

60. , tribus, structure sociale et pouvoir politique de Constantine sous les Turques, D.E. A. fac.des droit. et des Csces po. Aix, France, 1981.

61. - Ministère de la guerre, tableau de la situation de l établissement français, années,1840, 1845.

62. - Marx, et, Englis, sur les sociétés précapitalistes, éd. sociale, 1878.

63. - Marcel (E.), " une source pour l histoire du second empire: les souvenirs du général Desvaux ", Revue d'histoire moderne et contemporaine, t. 21, jan- mars,1974, Armand colin, Paris 1974.

64. - , " la situation économique de la régence d'Alger en 1830 ", in. Information historique, nov -dec. 1952.

65. - Noushi) A.), enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu'à 1919, Paris 1961.

66. - , » sur le féodalisme », cahier du C.E.R.M. éd. sociale, 1974.

67. - , " réflexions critiques sur le dossier: précolonial: l'Algérie précoloniale" in. sur le féodalisme, C.E.R.M. Paris 1971.

68. - Prenant) a.), l 'Algérie passe et présent, éd. sociale, Paris 1960

69. - Payssonnel- Pellissier) R.de), annales algériennes, Paris 1854.

70. - Peyronnet (R.), livre d or des officiers des affaires indigènes, t.2, Alger, 1930.

71. - Pananti, relation d un séjour a Alger, tr. de l'Anglais par: Blanquierre, le normands, Paris 1820

72. - Pouyanne) M.), la propriété foncière, Jourdan, Paris 1900.

73. - Perrot, Alger esquisse topographique et historique du royaume et de la ville d'Alger, Paris 1830.
74. - Rozet, Alger, 2 éd. Bouslama, Tunis, 1980.
75. - Robe (E.), les lois de la propriété foncière en Algérie, Algérie, 1891.
76. - Raynal) l'Abbé), Hist. philosophique et politiques des établissements et du commerce des européens en Afrique septentrional, Maurus et Cie, Paris 1826.
77. - Rinn) L.), marabouts et khouans, Jourdan, Alger, 1884.
78. " "le royaume d'Alger sous le dernier bey ", in. R. A. année 1897
79. - Remont) M.), " l'élargissement des droits politiques des indigènes ", in. R.A. année 1927, p-p, 213 -253.
80. - Serres) J.), la politique turque en Afrique du nord sous la monarchie de juillet, Paris 1925.
81. - Temimi (A.), le beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey, pub. de la revue
82. d'histoire maghrébine, Tunis 1987.
83. - Urbain) T.), " notice sur l ancienne province du Titteri ", in. R.A. année 1843
84. - Valensi) L.), le Maghreb avant la prise d Alger 1790 - 1830, Flamarion, Paris 1969.
85. - vayssette (E.), " hist. des derniers beys de Constantine depuis 1793 jusqu'à la chute de hadj Ahmed " in. R. A. année 1858.
86. - Warnier, et, Carette, description et division de l'Algérie, Hachette, Paris 1847.
87. - Yacono (x.)," peut- évaluer la population de l Algérie vers 1830", in. R.A. année 1954.
88. - , " la régence d Alger en 1830", in. R.O.M.M. no. 2,

الأمير عبد القادر
رائد الحركة الوطنية وبطل «المقاومة» المسلحة[1]

1. 1 - نشر هذا المقال في جريدة النصر الوطنية للشرق الجزائري يومي 16، 17 جوان 1982. وكانت طبيعة النشر في هذه الصحيفة لا تعتمد على كتابة المصادر والمراجع على الرغم ما للموضوع من مادة مصدرية متعددة.

بمجرد أن تمكنت الحملة الفرنسية من تحقيق هدفها باستيلائها على العاصمة 1830 وجهت السلطة الفرنسية حملتين واحدة إلى الشرق وأخرى إلى الغرب قصد المزيد من السيطرة، وهذا ما يؤكد نية فرنسا من أنها جاءت لاحتلال الجزائر واستعمارها. وعلى الأقل لاحتلال الساحل كله.

وتمكن الجنرال بوابي (Boyer) في أوت 1831 من احتلال مدينة وهران دون كبير جهد وذلك لموقف باي وهران الذي سلم مفاتيح المدينة إلى القوة الفرنسية مقابل أن يحصل على الأمان، ومن ثمة عين الجنرال بوابي حاكما على وهران، وهذا ما دفع بعض الفرنسيين إلى وصف هذه الحملة بالجولة العسكرية لعدم وجود مقاومة. ونفس الشيء الذي قام به باي التيطري مصطفى الذي أعلن ولاءه للفرنسيين دون أن تصل فرنسا إلى هذه المنطقة.

ويتساءل الدارس عن عدم وجود «مقاومة» خاصة من طرف باي وهران. لعل ذلك في رأينا يعود إلى أن الباي حسن قد تقدم به السن وتقلصت آماله ولاعتقاده بأن قوة فرنسا لا تقهر خاصة لما تغلبت على قوات الداي حسين التي تعد أكبر قوة في الجزائر آنذاك. وأيضا وضعه كان مهتزا، ولم يكن له سند من أوساط السكان نتيجة للسياسة التي اتبعها النظام العثماني مع المواطنين، ويكفي أن نذكر مثالا على ذلك: أنه في سنة 1823 توصل بحسن باي وهران أن وضع الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر تحت الرقابة خوفا من أن يقوى عضده فيهدد النظام العثماني في هذه المنطقة، ومن ذلك التاريخ ساءت العلاقة أكثر بين أسرة محي الدين والنظام القائم. وتأكد ذلك أكثر لما طلب هذا الباي حماية من أسرة محي الدين من الفرنسيين إلا أن هذا الأخير رفض.

لعل هذه العوامل هي التي منعت حسن باي عن المقاومة، ودفعته لتسليم المدينة إلى الفرنسيين. ومهما يكن من أمر فإننا نعتبر ذلك ضعفا من الباي خاصة من الناحية "الوطنية" لاسيما وأنه لا تربطه بهذا البلد جذور عرقية خلاف أحمد باي الذي أبدى «مقاومة» "وطنية" إلى آخر نفس من حياته. وبانهيار النظام العثماني في البلاد حدث فراغ إداري كان على فرنسا أو على أية قوة أخرى أن تملأه، ولهذا ذهب الاعتقاد بالحكومة الفرنسية أنه من السهولة بمكان أن تستولي على بقية المناطق الأخرى دون بذل جهد مادي ومن دون خسائر بشرية وفي أقصر مدة زمنية، ونلمس ذلك في اهتمامات السلطة الفرنسية بهذه المنطقة، وفي توسيع دائرة مخططاتها، منها أنها اتصلت بسلطان المغرب في أبريل 1832 قصد إقناعه بالتخلي عن مدينة تلمسان التي احتلها بعد سقوط النظام العثماني. ومن المؤكد أن هدف فرنسا كان رغبتها في التوسع غربا لازدهار تجارتها في أرزيو ومستغانم. علاوة على أنها لا يمكن أن تبقى بأمان في العاصمة ومنطقة الغرب بيد الأمير الذي يهددها باستمرار.

وصادف أن كان وفد جزائري يتكون من 10 أفراد بعثه محي الدين إلى سلطان المغرب قصد الحصول على مساعدات لمحاربة الفرنسيين فأحسن السلطان استقبال الطرفين الجزائري والفرنسي وتمكن من إرضائهما بأن أمر خليفته بلحمري أن يوقف جميع حروبه ضد الفرنسيين وأن ينسحب من تلمسان وفي الوقت نفسه ترك أمر مدينة تلمسان إلى محي الدين.

ولا ندري هدف السلطان من هذا الموقف أيكون ذلك لكسب الطرفين؟ أم كان لغرض أن يدخل الطرفان في حروب طاحنة فيسهل عليه فيما بعد التحكم

في زمام الأمور بعد أن يضعفا. أم أن ذلك كان سياسة منه لأن الظروف لم تتضح بعد فتطلب الأمر منه التزام الحذر الذي يتوافق مع طموحاته.

قلنا ذهب الاعتقاد بالحكومة الفرنسية إلى أنه من السهل أن تتوسع في الغرب دون عناء، إلا أن شيئا كهذا لم يحدث حيث قام الأهالي في هذه الأوطان بقيادة شيوخهم وعلى رأسهم محي الدين والد عبد القادر بهجمات عنيفة ومتعددة استمرت من يوم 3 إلى 8 ماي 1832 بقوات قدرت ما بين 3000 و4000 مجاهد، وقد أحدثت هذه الهجمات دويا في الداخل والخارج من ذلك أنها ظهرت على صفحات الصحف منها صحيفة خبور الجزائر أو (Moniteur algérien)في تاريخ 29 ماي 1832 وكانت هذه الهجمات بدافع الدين والشرف والوطن ضد "كفار"، وتحت هذا الوازع وفدت على مقر محي الدين عدة قبائل طالبة منه المزيد من الهجمات على الفرنسيين إلا أن هذا الأخير تقدم به السن وأدرك يقينا أنه لا يستطيع تلبية الرأي العام الداعي إلى تولي الإمارة ففضل أن يكون فكانت المبايعة له التي تعني البداية لتأسيس دولة جزائرية فتية كتب لها أن تقاوم مدة سنوات على الرغم من الصعاب التي سنتحدث عنها.

وعين دي ميشال حاكما على وهران خلفا لبوايي بمرسوم ملكي يوم 28 فيفري 1833 جاء هذا التغيير لإقرار السلام في الغرب ونتيجة لاشتداد «مقاومة» الأمير. في هذا الوقت أرسلت الحكومة الفرنسية اللجنة الإفريقية قصد التحقيق بل قل قصد إقرار شكل النظام الذي يخدم مصالحها والتعرف جيدا على إمكانات الجزائر وإسكات الرأي المعارض لاستعمار الجزائر، إذن

فاللجنة الإفريقية جاءت إلى الجزائر لذرء الرماد في العيون لأن من نتائجها إلحاحها على أن تكون الجزائر امتدادا طبيعيا لفرنسا منذ 1834. ومن ثمة دخلت القضية الجزائرية مرحلتها الحاسمة فتعين حاكم عام على الجزائر بدل القائد العام يوم 22 جويلية 1834 والحاكم هو دورلان (Drouet D'Erlon).

ومن جهة أخرى كان لهجمات الأمير الأثر الواسع على الداخل والخارج، فعلى الصعيد الداخلي تأثرت القبائل والشيوخ والمرابطون بهذه الانتصارات وكان الأمير هو الذي دفعهم إلى التزام الشعور الوطني أكثر بعد أن كانوا متذبذبين فعملوا على مساندته ومقاطعة التجاري مع الفرنسيين.

في حين كان أثر ذلك في الخارج بأن تجدد الاختلاف داخل البرلمان الفرنسي نفسه فظهر فريق قوي طالب بالجلاء الفوري تحت قناعة أن البقاء في الجزائر يعني قضاء علينا ماديا وبشريا ودون مقابل، وكتب دي صاد وهو النائب واحد الأعضاء البارزين في اللجنة الإفريقية كتب يوم 28 أفريل 1834 يقول: يوجد بالغرب الجزائري 100 ألف محارب يمكن للأمير أن يتولاها بنفسه فيشكل بها خطرا علينا، لأنه الشخص الوحيد المناهض لوجودنا.

توصل دي ميشال إلى عقد صلح مع الأمير يوم 26 فيفري 1843 ولا داعي أن نفصل مراحل وبنود هذا الصلح، وإنما يكفي أن نقول إن هذا الصلح يعني ضعف القوة الفرنسية في هذه المنطقة، كما أن هذا الصلح يعد وسيلة ضرورية ليتمكن بعدها الطرفان من إعداد نفسه من جهة أخرى فالأمير مثلا: تمكن وفقا لمعاهدة الصلح هذه من الحصول على 100 بندقية و5000 كلغ بارود من دي ميشال، ثم تفرغ إلى تنظيم الداخل لأن قبائل كثيرة -بقيادة ابن العربي- ثارت

ضد الأمير الذي جهز حملة تأديبية ضدهم وانتصر عليهم في جوان 1834 ثم عين عليهم بوشاقور خليفة له. ثم عين محي الدين بن علال خليفة له في مليانة وفوض له أن يجمع كلمة المسلمين المتمردة بالشمال إلى شرشال والتنس. ثم تفرغ الأمير للناحية الغربية فأخضع قبيلة رياح فيما وراء تلمسان، ثم أثخن في بني خلاد الذين أعلنوا العصيان.

وانضم الشيخ ابن الغماري غرب التافنة إلى أعراش الدوائر وتصدوا للأمير الذي لم يكن منه إلا أن دخل في حرب ضدهم فانتصر عليهم في جويلية 1834 بعد أن قتل من أبطالهم ما تبكي عليهم العيون أمثال عبد الله بن الشيخ الغماري. ثم دخل تلمسان التي كان عليها مصطفى بن إسماعيل المناهض للأمير ففر ابن إسماعيل هذا إلى المغرب وأرسل الأمير الأمان إلى كل من ابن الغماري والمازري اللذان كانا في صف ابن إسماعيل.

ولنا أن نتساءل عن سبب مناهضة هذه القبائل للأمير؟ في رأيي هناك عدة أسباب منها: حتى لا تدفع هذه القبائل والأعراش الضرائب للأمير. ثم أن الكثير منها أعلنت ولاءه للفرنسيين خوفا منها وطمعا فيها. ثم أن الأنفة القبلية والاعتداد الذاتي لشيوخها منعها من أن تنظم لزعيم آخر من قبيلة أخرى، ولعل هذا يعد من أكبر العوامل التي منعت قيام وحدة وطنية في الجزائر. كما أنه كان من أكبر العوامل التي ساعدت الاستعمار الفرنسي على التحكم في البلاد.

بعد أن أحرز الأمير جملة من الانتصارات في الشمال الغربي أولى اهتماما بمناطق أخرى فبعث خليفته محمد الصغير إلى بسكرة. ويكون الأمير بذلك قد حقق أكثر من انتصار على جبهتين قويتين الأولى تمثلت في قوة فرنسا التي

توصل مع ممثلها دي ميشال إلى صلح. والثانية جبهة القبائل الثائرة التي أخضعها بالقوة وإن كانت قد نالت من قواته الشيء الكثير.

بعد هذا أراد أن يوسع نشاطه أكثر طالبا للمزيد من الانتصارات بأن حاول كسب تأييد النظام التونسي فأرسل محمد بن كانون إلى أحمد باشا حاكم تونس محملا بهدية معتبرة عبارة عن سيف مرصع بالجواهر وخيول ذات سروج ذهبية وآلة شاي من ذهب. وعاد هذا الوفد ممونا محملا بالهدايا تعبيرا عن تبادل المشاعر. لأنه سبق لنظام الحكم في تونس أن طمع في الاستيلاء على مقاطعتي الغرب والشرق وقد أبرمت معاهدة في هذا الشأن بين الحاكم التونسي والحاكم الفرنسي كلوزال يوم 6 فيفري 1831 إلا أن ذلك لم يتم وهذه لفتة دبلوماسية من الأمير عبد القادر الذي برهن بهذا الموقف على بعد نظره وعلى قوة إيمانه في تكوين دولة قوية على غرار الدول الأخرى، وكان لا يتأتى له ذلك إلا باعتراف دبلوماسي. ويكون أيضا قام بهذه المحاولة قصد التخلص من العامل الثالث -بعد الفرنسيين والقبائل- والمتمثل في شخص الحاج أحمد باي قسنطينة الذي كان على خلاف مع نظام الحكم التونسي ومع الأمير عبد القادر.

في هذا الوقت الذي أنكب فيه الأمير على إعداد دولة عصرية عزل دي ميشال وحل محله تريزيل(Trizel) ويذهب البعض إلى أن سبب عزله هو أن السلطة الفرنسية أحست بميله إلى الأمير بل وأنه سيعتنق الإسلام، ولكن من المؤكد أن عزل دي ميشال جاء نتيجة ضغط التجار الفرنسيين حين تأثرت تجارتهم بما لحقها من أضرار كثيرة لأن أرزيو كانت مركز النشاط التجاري

ووفقا لمعاهدة الصلح فأرزيو كانت تحت نفوذ الأمير التي عين عليها وكيله ابن محمود وأيضا أنها أحست بأن المعاهدة كانت لصالح الأمير الذي تفرغ على إثرها لتنظيم دولته وتقويتها، وهو ما لم يكن يتفق مع أهداف فرنسا الرامية إلى استعمار الجزائر.

في هذا الوقت قام شيخ من الطريقة الشاذلية واسمه الحاج موسى حسن المعروف بأبي حمار -لإدمانه على ركوب الحمار- فجمع إليه أعراشا كثيرة ومنهم أولاد نايل وزحف على مدينة المدية وصادف أن أطلقت على قوته طلقة واحدة من مدفع قديم فتطايرت شظاياه فاعتبر هو ومريدوه ذلك معجزة منه، ولما سمعت الأعراش التي على خلاف مع الأمير انضمت إلى أبي حمار -فقرر الأمير محاربة هذا -الدجال- فكتب أبو حمار إلى الأمير يطلب منه أن يجاهد في سبيل الله ضد الفرنسيين وأن يعلن الطاعة إليه فكان رد الأمير: أنه لا يمكن أن يحارب الفرنسيين التزاما بمعاهدة الصلح، وأما الطاعة فالأمير مبايع لا يمكن أن يطيع من ليس مبايعا.

ويمكن أن نستخلص ثلاث نقاط من موقف أبي حمار هذا، الأولى أنه تحرك بدافع الغيرة على الإسلام، الثانية انه قصير النظر لما طلب من الأمير الجهاد لأن الظرف يحتاج إلى التريث والإعداد لا إلى الاندفاع والهجوم، والثالثة التناحر بين الطرق "الصوفية" لأن أبا حمار ينتمي إلى طريقة وكذلك الأمير ينتمي إلى طريقة أخرى تأبى كل منهما الخضوع للأخرى.

المهم استعد الطرفان لإضعاف قواهما وبعد أن خاطب أبو حمار الناس بقوله: بأن مدفع الأمير لا يعمل شيئا وكذلك رصاصه لا يخترق الأجسام.

وانتهت المعركة بانتصار الأمير فدخل المدية وعين عليها خليفة وهو محمد البركاني فاغتنم تريزيل حاكم وهران هذه الفرصة وحمل الأمير مسؤولية خرق المعاهدة باحتلاله المدية. في الوقت الذي طلبت الحكومة الفرنسية من هذا الحاكم العام أن يعقد الصلح مع هذه القبائل لمحاربة الأمير إلا أن الحاكم العام رفض ذلك أملا في أن يعقد صلحا مع الأمير عبد القادر يكون لها من المصالح أكثر، لأنه يمثل مركز القوة في الناحية. فخرج تريزيل في أول جويلية 1836 على رأس قوة تقدر بـ 5000 عسكري مدججة بأسلحة كافية فتصدى لها الأمير بثبات ونظام فكان ميمنة جيشه خليفته البوحميدي والميسرة خليفته بوشاقور في حين كان الأمير قلب الجيش: والتحم الفريقان في كروفر بالقرب من سيق وحقق الأمير انتصارا عظيما في هذه المنطقة بوادي المقطع وهي معركة المقطع عام 1836. والسؤال كيف تمت هذه المعركة؟

نقض تريزيل المعاهدة وخرج أول جويليا عام 1836 من وهران بجيش قوته 5000 محارب من المشاة وفرقة من الخيالة مزودة بأربعة مدافع ومؤونة وافرة يساندهم جيش من قبيلتي الدوائر والزمالة الجزائريتين المشكلين من 2000 خيمة كل ذلك لمحاربة الأمير عبد القادر.

علم الخليفة البوحميدي وأخبر الأمير عبد القادر بهذا التحرك فأسرع على رأس جيش يتكون من 2000 فارس و1000 من المشاة. ومن دون أن يتردد الأمير فعين خليفته البوحميدي في الميمنة وخليفته بوشقور في الميسرة وتولى الأمير رئاسة القلب. وهذه الخطة معروفة ومعتادة في الجيوش القديمة التي تعني مواجهة النّد للند. لكن الأمير اكتفى بالمناوشة من دون الالتحام وهذا في منطقة

سيق. واستمرت هذه المناوشة يومين الأمر الذي شجع الجيش الفرنسي على الهجوم أكثر من مرة. لكن الأمير انقضّ على الجيش الفرنسي في الوقت المناسب فانهزم بسرعة فما كان من تريزيل إلا التفكير في العودة إلى وهران لكن الأمير سدّ المنافذ وفرض عليه أن يسلك طريقا وعرة وفي الحين جهز الأمير 1000 فارس وأردف بـ 1000 آخر وأسرع بهم إلى مكان يسمى بمجاز نهر هبرة المعروف بالمقطع وهو المسلك الوحيد الذي يمرّ منه تريزيل. وفور وصول الجيش الفرنسي إلى هذا المكان أحاط الجيش الجزائري به فما كان من تريزيل إلاّ الإسراع للخروج من هذا المسلك وإذا به وجد نفسه وجها لوجه أمام فرسان الأمير فترل الرعب في ما تبقى من جيش تريزيل فتراجعت مقدمته لتصطدم بمؤخرته فكان القتال غير متكافئ حيث لحقت الهزيمة النكراء بجيش فرنسا للمرة الثانية في معركة واحدة. فترك قتلاه وأسراه وعتاده وانسل تريزيل خفية عائدا إلى آرزيو خائبا.

والسؤال المطروح كيف انتصر الأمير؟

إن عوامل كثيرة مكنت الأمير كي ينتصر نذكر منها إستراتيجيته المتمثلة في إعداده لجيش منظم مثلما سبق وأن ذكرنا. أيضا أن الأمير كان يحارب في بلده التي يعرفها جيدا بينما تريزيل كان يحارب في منطقة لا يعرفها هو دخيل عليها. وهذا يؤكد مدى أهمية معرفة المكان في ميدان القتال حيث فرض على العدو أن يسلك طريقا ليس في صالحه(مسلك الهبرة/المقطع). أيضا اعتماد الأمير على قلة العدد وخفته بينما كان تريزيل اعتمد على كثرة العدد وثقله وهذا يؤكد أن كثرة العتاد والعدد يصعب التحكم فيه في المعركة. أيضا أن الأمير قسم الأدوار

على جيشه فريق يناوش وفريق يهجم. من العوامل أيضا أن الجيش الجزائر كان موحد الصف مقتنعا بقداسة الجهاد من أجل الجزائر في حين كان جيش تريزيل متعدد الجنسيات يحارب من أجل الحرب. بجانب هذا كله كان عنصر المفاجأة الذي طبقه الأمير ضد عدوه.

وكانت لهذه الهزيمة النكراء نتائج كثيرة من بينها عزل تريزيل من منصبه والدخول في مرحلة حاسمة أصرت فرنسا على ضرورة القضاء على الأمير عبد القادر بدءا باحتلال عاصمته معسكر.

وبهذا الانتصار انضمت إلى الأمير أعراش وقبائل زادت في قوته ورفعت معنوياته فتأكد له النصر، وأعطى لذلك بعدا بأن قرر تهديد الفرنسيين المتمركزين في العاصمة بأن وجه أوامره لخليفته في مليانة أن يهجم على مدينة الجزائر بقوات قدرت بـ 5000 مجاهد، كما وجه تعليماته إلى خليفته في تلمسان كي يقوم هو الآخر بهجوم على وهران، ويتأكد من هذا أن الأمير عقد العزم على تحرير البلاد من السيطرة الفرنسية.

أمام تعاظم قوة الأمير وانتصاراته على الفرنسيين وخوفا من القضاء على القوات الفرنسية أسرعت الحكومة الفرنسية في إرسال بيجو إلى الجزائر الذي اتجه فور وصوله إلى تلمسان على رأس نجدات عسكرية قدرت بحوالي 3000 عسكري اتجه بها يوم 1 جويلية 1837.

وتمكن بيجو من تحقيق انتصارات على الأمير إذ افتك منه عاصمته وحاصر تلمسان وانتصر عليه في وقعة سكاك، وبالرغم من هذه الهزائم التي مني بها الأمير إلا أنه لم يكل بل واصل جهاده على مختلف الجبهات، مما يدل على ثقته

القوية وإيمانه الراسخ؛ بجانب دعم المواطنين له. ولما بلغ مسامع الأمير أن -كلوزال- قد فشل في حملته على قسنطينة 1836 أراد هو الآخر أن يزيد من ضعف فرنسا فأمر خليفته مصطفى بن التهامي والبوحميدي أن يجمع قبيلتي الغرابة وبني عامر وغيرهما ويعدهما للجهاد وكذلك أمر خليفته محمد بن علال أن يضايق الفرنسيين المتواجدين في العاصمة وضواحيها بأن يقطع عليهم المؤونة.

ويكون الأمير بهذا العمل أراد أن يشتت قوة الفرنسيين ويدفعهم إلى الجلاء عن البلاد، وهو مصيب إلى أبعد حد، لأن القوة الفرنسية تمزقت في الشرق والغرب و لم تجد بدا من التفكير في عقد صلح مع الأمير عبد القادر إذ فكر الحاكم العام دامريمون (Damerémont) الذي تولى القيادة في فيفري 1837 فكر في عقد صلح وطلب ذلك من الأمير الذي اشترط بدوره على هذا الحاكم اعتماد العملة التي يسكها الأمير في قطاع دولته، إلا أنه رفض نظرا لخطورة هذا الشرط على مستقبل فرنسا.

كانت معاهدة التافنة في تاريخ 30 ماي 1837 بين دولة الأمير والسلطة الفرنسية المحلية كانت خدمة للطرفين، خدمة للأمير الذي تفرغ على إثرها في تنظيم الداخل بأن حدد حروبه ضد القبائل والأعراش التي انشقت عن صفه، في حين كانت خدمة للسلطة الفرنسية بأن تفرغت للقضاء على قوة أحمد باي فرمت كل ثقلها إلى الشرق، وبالفعل تمكنت من احتلال مدينة قسنطينة ومن بعدها كامل الشمال، وهذا موضوع نتناوله في موضع آخر، المهم تعتبر هذه المعاهدة بالنسبة للأمير انتصارا كبيرا فجاءته وفود منها من تبارك، ومنها من

تعلن ولاءها من جديد، ومنها من تطلب الأمان فعين على الأغـــواط الحـــاج العربي بن الحاج عيسى الغواطي. وما جاء سنة 1838 حتى تمكن الأمير مـــن القضاء على كل الخلافات في تلك الناحية.

ووفد عليه شيوخ من ناحية قسنطينة ومن الحدود الشرقية جاءوا يستنجدون به فرحب بهم واعتذر لهم لأن المعاهدة "التافنة" تمنعه من أن يخون، ويبدو الأمير هنا رجل إيمان، رجل سلام أكثر مما هو رجل سياسة، ويكون من جهة أخرى قد أضعف روح «المقاومة» في هذه المنطقة التي ظلت تبحث عن زعـــيم لهـــا خاصة بعد سقوط أحمد باي.

لجأ أحمد باي إلى منطقة بسكرة لكن فرحات بن سعيد بإيعاز ودعـــم مـــن الأمير وبرفقة خليفته محمد البركاني حارب أحمد باي الذي لم يجد حـــلا غـــير الرحيل، ومن ثمة خضعت قبائل الذواذة ونفزاوة إلى خليفة الأمير وهو فرحات بن سعيد، وبذلك خضعت الزيبان إلى نفوذ الأمير وهو ما لم ترضاه الســـلطة الفرنسية إذ أرسل فالي(Valée) القائد على قسنطينة إلى الأمير يقول له: إن لا دخل لك في إقليم قسنطينة، فردّ الأمير: أن إقليم قسنطينة فيه إعادة نظـــر، وأن الزيبان كانت خارجة على نطاق أحمد باي ومن ثمة ساءت العلاقات من جديد والذي يزيدها سوءا انضمام بوعزيز بن قانة إلى الصف الفرنسي وضد الأمير.

ولنا أن نتساءل عن العوامل التي دفعت بوعزيز بن قانة إلى إعـــلان الـــولاء للفرنسيين وتخليه عن مناصرة أحمد باي، تبدو لنا العوامل كالآتي: أنه تيقن من أن قوات أحمد باي لا يمكن أن تصمد أمام القوات الفرنســـية طـــويلا. لأنـــه بالانضمام إلى السلطة الفرنسية ستعلو مكانته ويصان مركزه. ويـــتمكن مـــن

القضاء على كل من بوعكاز وفرحات وبن سعيد المناصرين للأمير عبد القادر، وبالفعل تمكن من قتل فرحات بن سعيد بواسطة أنصاره. لهذا تخلى عن أحمد باي وانظم إلى الفرنسيين فنصب شيخا على العرب في جانفي 1839 ودخلت تحت نفوذه مناطق كثيرة.

وجاء انضمام بوعزيز بن قانة في وقت كانت فيه السلطة الفرنسية في حاجة ماسة إلى مناصر خاصة في هذه المنطقة من الزيبان وذلك لضرب الأمير عبد القادر الذي أرسى قواعد دولته؛ ومن ثمة ظهرت قوتان تتصارعان السيادة في المنطقة هما: قوة ابن قانة المساندة بقوة الفرنسيين، وقوة الأمير عبد القادر الذي أرسى قواعد دولته التي اتسعت ولاياتها ونذكر منها: ولاية برج حمزة خليفتها محمد بن عبد السلام المقراني ثم أحمد بن عمر، وولاية الزيبان تحت خلافة فرحات بن سعيد فحسان بن عزوز وأخيرا محمد الصغير بن أحمد بن الحاج، وكان هذا الأخير قد تحصن في سيدي عقبة وانضم إليه الشيخ أحمد بن شنوف بعد أن كان عضد ابن قانة، ونتج عن هذا الاتحاد بين محمد الصغير وابن شنوف سقوط مدينة بسكرة بيد قوات الأمير عبد القادر، وبقيت هذه المدينة تحت نفوذ خليفة الأمير إلى أن تمكنت القوات الفرنسية من احتلالها يوم 4 مارس 1844.

وبالرغم من أن محمد الصغير هاجم الحامية الفرنسية هناك إلا أن القوات الفرنسية بسطت نفوذها على المنطقة وساعدها على ذلك مناصرة بعض الشيوخ للفرنسيين نذكر منهم شيوخ من بني جلاب بتوقرت الذين سهلوا فيما لفرنسا أن تحتل مناطق أخرى.

وبذلك تكون المنطقة خرجت من حوزة الأمير عبد القادر الذي بدأ نفوذه يتقلص شيئا فشيئا وسنعود للحديث عن عوامل الأمير عبد القادر بعد استعراض نشاطه السياسي.

نشاطه السياسي–الدبلوماسي

للأمير عبد القادر نشاطات كثيرة، علمية ودينية وعسكرية وسياسية، إذ تكاملت شخصيته من كافة الجوانب، وكان لتكوينه هذا أفق واسع أهله أن يلعب دورا كبيرا في هذا تاريخ في كفاحه ضد الفرنسيين وحتى فيما بعد في المشرق.

ويمكن عرض بعض الجوانب من النشاط السياسي الذي يعد الشطر المكمل للنشاط العسكري من ذلك أنه اتصل بسلطان المغرب وأعلن ولاءه له لسبب سياسي بالدرجة الأولى هذا في الظاهر على الأقل وقد يكون في الباطن أن الأمر يتعلق بجانب فقهي، وكان ذلك الاتصال شرطا لنجاح المقاومة، وتلقى سندا من قوة المغرب منها أنه حصل في البداية –قبل أن تتدخل السلطة الفرنسية في شؤون المغرب– على عدة مكاسب منها أن أخلت القوات المغربية مدينة تلمسان كما قدم سلطان المغرب تأييدا معنويا وماديا بما في ذلك حصوله على أسلحة. فكان لهذا العامل وقعا كبيرا على نفس الأمير ومن حوله، وعامل ترغيب في المزيد من الجهاد، وعامل ترهيب لأعداء الأمير.

بعد هذه الخطوة اتصل بنظام الحكم التونسي فأرسل وفدا محملا هدايا كما سبق ذكره، ثم فتح باب المفاوضات مع السلطة الفرنسية المحلية وتباحث معها في قضايا متعددة عن طريق موكله في الجزائر العاصمة توصل من خلالها إلى

عقد اتفاقيات كانت للأمير منافع نذكر منها: الحصول على الحديد والبارود والكبريت وإطلاق سراح الأسرى المسلمين مقابل فك الحصار التجاري على السوق الفرنسية لتستفيد بكميات هائلة من الحبوب.

ووسع من هذا العمل بأن أمده إلى باريس حيث بعث سفيرا له هناك وهو ميلود بن عراش ليتصل بملك فرنسا لويس فليب، علاوة على أن أحد المواطنين وهو أحمد بوضربة الجزائري الذي نفته السلطة الفرنسية إلى باريس 1830 كان يعمل لصالح الأمير خلال هذه الفترة، ولسنا ندري أيكون مبعوث الأمير ميلود بن عراش قد اتصل بأحمد بوضربة أم لا؟ وإن كنا لا نستبعد ذلك.إنما المؤكد أن أحمد بوضربة هذا كان على اتصال بالأمير، بل كان أكثر الناس الداعين لنصرته.

ثم أسس علاقات وثيقة مع إنجلترا فربط معها علاقات تجارية وعمل على تصدير كمية من الصوف والحبوب والزيت والجلود من تلمسان مقابل حصوله على كميات هائلة من القهوة والسكر. وقد تكون بجانب ذلك أسلحة، وهو ما أقلق السلطة الفرنسية إذ أرسل لباسكي المقتصد المدني تقريرا إلى الحاكم العام يوم 15 ديسمبر 1834 محتواه أن الأمير قد تعامل تجاريا مع الشركة الإنجليزية المتواجدة بجبل طارق.و لم يكتف الأمير عبد القادر بربط علاقات دبلوماسية مع كل من السلطان المغربي ونظام الحكم التونسي وباريس وبريطانيا فحسب، بل مد ذلك إلى الباب العالي، ويعود الفضل في دفع الأمير إلى الاتصال بالباب العالي هو حمدان خوجة إذ بمجرد أن اشتد القتال بين الفرنسيين والأمير استبشر خيرا وطلب من الأمير أن يعقد اتصالات بسلطان الباب العالي،

والغريب في الأمر أن حمدان خوجة كان في حالة عداء مع الأمير وهو في فرنسا إلا أنه عدل عن ذلك وتقرب إلى الأمير (وهذا موضوع آخر عن حمدان نبحثه في موضع آخر).

ومهما يكن من أمر فإن حمدان تقرب إلى الأمير نتيجة الانتصارات التي حققها هذا الأخير، أو لإدراك حمدان أن الأمير تلتف به قبائل قوية بإمكانها أن تطرد الفرنسيين، ثم أنه من جهة أخرى أدرك زيف السلطة الفرنسية ووعودها الكاذبة.

وإذا اعتمدنا بقول الأمير يكون حمدان قد راسل الأمير في هذا الشأن حيث قال: "لقد يزغ من مطلع ودكم مشتري المحبة في برج غرس الإحسان إلا أن في أثره إشارة أنا كاتبنا آل عثمان مع أننا لم تقع منا قط كتابة خوفا من عدم القبول أو عدم الإجابة فاعتمدنا إشارتك بهذا الرأي الرشيد واستعطفنا سيدنا ومولانا السلطان عبد المجيد وعرضنا على حضرته العلية حالنا".

وقد قدر الباب العالي موقف الأمير، لكنه وضعه كان ضعيفا فلم يتمكن من تقديم المساعدة لا إلى الأمير فحسب، بل حتى إلى أحمد باي الذي كان كثير الإلحاح لتقديم المساعدة.

وبناء على ما تقدم نستخلص أن الأمير عبد القادر قد بذل جهدا دبلوماسيا معتبرا لإعطاء بعدا لدولة فتية ولربطها بالدول العظمى، من جهة، كما أنه يعرف من جهة أخرى أنه صار في وضع يستلزم المزيد من المساعدة إلا أن شيئا كهذا لم يحدث لأن معظم الوثائق التي بين أيدينا لا توضح أن مساعدات كافية وصلته إلاّ باستثناء الشيء القليل من أعداء الفرنسيين والسلطان المغربي. وبذاك

يكون الأمير عبد القادر قد وظف جميع الطرق من علمية وعسكرية ودينية واجتماعية وسياسية لتطوير دولته وبالتالي لبعث حركة وطنية جزائرية صحيحة. إلا أنه لم يكتب لها الدوام إذ تضافرت عوامل قوية أدت إلى ضعفه ومن هذه العوامل:

1. تفوق فرنسا عسكريا وسياسيا، وإصرارها على مواصلة الاحتلال خاصة لما تعين المارشال -سولت- رئيسا للوزراء يوم 30 ديسمبر 1840 والذي كان مناصرا لفكرة ضرورة الاحتلال، وتعين بيجو حاكما عاما على الجزائر مكان -فالي- في فيفري 1841 والذي جاء على رأس قوات كثيرة العدد والذي جاء بسياسة جديدة هي سياسة الأرض المحروقة.
2. العامل الثاني تمثل في نعرات القبائل التي أعلنت عصيانها وعدم اتحادها مع الأمير عبد القادر، فعلى الرغم من أنه تمكن من إخضاع بعض القبائل بفضل التنظيم والإيمان، إلا أن حروب القبائل ضده نالت من قواه الشيء الكبير، وإن كنت أرى أن أكبر عامل أضعف دولته هو هذا الانشقاق القبلي، ولا بأس من ذكر مثال على ذلك، قام سيدي محمد بن سيدي أحمد بن سالم التيجاني - الطريقة التيجانية- قام باستنفار أهالي الأغواط ضد الأمير عبد القادر، كما أن قبائل أخرى حدت حذو التيجاني.
3. وهناك عامل ثالث هو عدم وصول نجدات عسكرية من أية جهة خاصة بعد أن اشتدت الحروب بين الأمير والقوات الفرنسية، لاسيما بعد قضي على -الزمالة- الدولة المتنقلة من طرف القوات الفرنسية.

4. هناك عامل رابع وهو أن تنظيماته ومخططاته كانت معروفة عند الفرنسيين عن طريق ليون روش الذي انضم إلى الأمير عبد القادر وعمره عشرون سنة قصد التجسس عليه بعد أن أظهر إسلامه، إذ قربه الأمير إليه إلى أن صار مستشاره الخاص يحضر كل مجالسه، ومن أراد الإطلاع على أفكار هذا الفرنسي الجاسوس يقرأ كتابيه: "ثلاثون سنة عبر الإسلام" و"عشرة سنوات عبر الإسلام.

فتضافرت هذه العوامل وأدت إلى نتيجة وهي استسلام الأمير إلى حتمية المصير سنة 1847، وإن كنا نرى في استسلامه ضرورة أمليت عليه، وليس خيانة منه كما يحاول البعض مسه بها.

يتضح لنا مما تقدم أن الأمير عبد القادر يعد رائدا للحركة الوطنية الجزائرية، والمقاومة المسلحة، على الرغم من أنه حارب على جبهات متعددة، حارب ضد الفرنسيين الذين كانوا يفوقونه عدة وعددا، كما حارب في أكثر من موطن تلك الأعراش والقبائل المنشقة، ثم إنه تصدى لأحمد باي كجبهة ثالثة.

و لم تلهيه هذه الحروب عن ممارسة لون آخر من النشاط وهو الدبلوماسية إذ تمكن من ربط صلات وثيقة بدول كثيرة بدأها بسلطان المغرب ثم نظام الحكم التونسي وباريس وإنجلترا وغيرها من الدول، وختمها بالباب العالي، فيكون بذلك قد عمل على إرساء قواعد لدولة قوية ذات بعد حضاري، لها تأثيرات داخلية وخارجية فهو بحق يعد رائد: وعنوان الافتخار.

فهرس المواضيع



صدر للمؤلف نفسه

- جوانب من السياسة الفرنسية والمقاومة الوطنية بالشرق الجزائري
- دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827 - 1840)
- في منهجية البحث العلمي
- دراسات في تاريخ الجزائر الحديث الطبعة الثانية
- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث الطبعة الثانية
- من الملتقيات التاريخية الجزائرية
- بحوث تاريخية
- فواصل من الفكر والتاريخ
- علاقات الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي
- وصف رحلة من الجزائر إلى قسنطينة عام 1832
- أبحاث في الفكر والتاريخ
- رسالة الطريقة القادرية في الجزائر
- ملخصات وآراء في التاريخ الحديث والمعاصر
- الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر
- موضوعات في تاريخ الجزائر السياسي
- السياسة الفرنسية والمقاومة الوطنية في منطقة سكيكدة 1838 - 1858
- السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844 - 1916 (عمل مشترك)
- دليل الجامعة للدراسات العليا (عمل مشترك)
- ET UDE SOCIOLINGUISTIQUE D'UN MILIEU SCOLAIRE DE 6°A

ردمك 7 - 597 - 0 ... - 9961